أدب الخطاب مع اللّه تعالى
في القرآن الكريم

إعداد

الأستاذ الدكتور

خليل رجب حمدان

تدريسي كلية العلوم الإسلامية – رمادي

Prof.Dr. Khalil Rajab Hamdan

Teaching Faculty of Islamic
Sciences – Ramadi

Abo_nono86@yahoo.com

الأستاذ المساعد

فراس يحيى عبد الجليل

تدريسي كلية العلوم الإسلامية – رمادي

Dr. Firas Yahya Abdul Jalil

Teaching Faculty of Islamic
Sciences – Ramadi

dr_firass2000@yahoo.com

Research Summary

The study tackled the art of expression inspired from Quran; the finest، soothing and eloquent manner of speaking to Allah. The stud investigated and interpreted Ayat from Holy Quran related to the issue of manner of speaking to Allah. It showed its evidence and basis from holy Quran. It also showed images of eloquent statement and accurate expression of speech. It addressed the manner of speaking to different levels of people.

الملخص:

تناول هذا البحث دراسة فن من فنون التعبير عن المعاني في القرآن الكريم، وموضوعا من الموضوعات الإرشادية الراقية، والتي تنطوي تحت قاعدة **(أدب الخطاب مع الله تعالى في القرآن الكريم)**، وذلك من خلال استقراء الآيات المتعلقة بالموضوع، وحصر عناصرها، ودراسة مستنداتها، واستنباط دلالاتها، ووجوه ارتباطها بقاعدتها، ووقفنا فيها عند الآداب العامة التي يرشد القرآن الكريم إلى ضبط الخطاب بها، وصور من فنون إسناد أفعال الله ﷾، مع التلميح إلى لطائف البيان، ودقائق التعبير التي تضمنتها السياقات، وفنون تلوين الخطاب بحسب أحوال المخاطبين ومقاماتهم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وأَصحابه ومن والاه، وبعد:

إِن لأَساليب القرآن الكريم وتوجيهاته خصائص فنية بديعة، ودقائق إِرشادية جليلة، غرضها الترقي بالخطاب أَسلوبا وروحا ومعنى، وبناء منظومة سامية لأفانين التعبير عن المعاني والمرادات، تتناسق مع المقامات والأَحوال والأَغراض.

ومن المعلوم أَن جميع المحدثات خيرها وشرها من فعله ﷾ وخلقه، وواقعة تحت ملكه وإِرادته، لكن التعبير الغالب في القرآن الكريم عن ذلك يرد بصور متعددة، وأَوجه مختلفة في أَساليب البيان عن المعاني، فمرة يسند الفعل إِلى نفسه ﷾، ومرة ينسبه إِلى الفاعل المجازي، وتارة يصرح بالفاعل فيبني الفعل معه للمعلوم، وأَخرى يخفي الفاعل فيبني الفعل للمجهول، وقد نجد الإِسناد موجها إِلى العموم، وقد لا يكون كذلك، وكل هذا يجري وفق نظم فني مطرد، ودلالات معنوية مقصودة، وإِيحاءات إِرشادية مرادة.

وهذه الدراسة تستظهر هذا الفن من فنون التعبير عن المعاني في القرآن الكريم، وموضوعا من الموضوعات الإِرشادية الراقية، تنطوي تحت قاعدة (أدب الخطاب مع الله ﷾ في القرآن الكريم)، وذلك من خلال استقراء الآيات المتعلقة بالموضوع، وحصر عناصرها، ودراسة مستنداتها، واستنباط دلالاتها، ووجوه ارتباطها بقاعتها، ووقفنا فيها عند الآداب العامة التي يرشد القرآن الكريم إِلى ضبط الخطاب بها، وصور من فنون إِسناد أَفعال الله ﷾، مع التلميح إِلى لطائف البيان، ودقائق التعبير التي تضمنتها السياقات، وفنون تلوين الخطاب بحسب أَحوال المخاطبين ومقاماتهم.

وقد جاءت الدراسة في مقدمة ثلاثة مباحث وخاتمة:

المبحث الأول: القاعدة في إِسناد أَفعاله تعالى إِليه ومستندها.

المبحث الثاني: إِظهار الفاعل مع أَفعال الخير وبناؤه للمجهول مع أَفعال الشر.

المبحث الثالث: إِسناد أَفعال الشر إِلى الفاعل المجازي.

المبحث الأول

القاعدة في إسناد أفعاله تعالى إليه ومستندها

معلوم أن الخير والشر، والنفع والضر، واقع بقضاء الله وقدره، وهو سبحانه وتعالى خالق كل شيء كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ الزمر: ٦٢، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦ ﴾ الصافات، ولا يصيب الإنسان إلا ما كتبه الله له، ولو أراد الخلق أن ينفعوه بشيء لم يكتبه الله له لم يقدروا عليه، ولو أرادوا أن يضروه بشيء لم يقضه الله عليه لم يقدروا (١). وكما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦ ﴾ يونس:١٠٧.

ومع ذلك فإن الطريقة المعهودة في القرآن الكريم، أنه لا يضاف إلى الله سبحانه وتعالى على الانفراد ما يتوهم منه نقص، فلا يقال: يا فاعل الشر، أو يا خالق الضر، كما لا يصح أن ينسب إلى فعله الأشياء المستقذرة، أدبا مع الله سبحانه وتعالى، وإنما ينسب إليه سبحانه وتعالى أشرف قسمي أفعاله، فينسب إليه الخير والنعمة والرحمة، ولا ينسب إليه أضدادها، على قاعدة الأدب في الخطاب، وهذه هي عادة التعبير القرآني، والأسلوب الذي جرت عليه طريقته، تعليما وترقيا بأساليب البيان لدى المسلمين، فليس كل معنى وإن كان صحيحا في نفسه يصلح أن يقال في كل مقام وحال.

يؤكد ذلك ما قررته النصوص الصريحة الآتية:

أولاً: التنصيص على إضافة الخير دون الشر:

كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦ ﴾ آل عمران.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُ ﴾ والكلام فيه محذوف، أي: بيدك الخير والشر، فحذف المعطوف، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ ﴾ النحل:٨١ (٢). فقد أظهر مع إيتاء الملك ونزعه، ومع الإعزاز والإذلال، لكنه لما كان في سياق ذكر ما بيده الشريفة سبحانه وتعالى على العموم، والأشياء تنقسم من حيث الخيرية وعدمها إلى قسمين: خير وشر، أفرد ذكر الخير، فقال: ﴿ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُ ﴾، ولم يقل: (والشر) وإن

---

(١) بهذا ورد حديث ابن عباس عن النبي ﷺ، والحديث أخرجه الإمام أحمد والترمذي، ينظر: مسند أحمد: ١/٣٠٧ رقم (٢٨٠٤)، حديث ابن عباس، وسنن الترمذي: ٤/٦٦٧ برقم: (٢٥١٦) وقال الترمذي: حسن صحيح .

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٤/ ٥٥.

كانا جميعا بيده، أدبا في الخطاب مع الله ﷾، وتعليما للمخاطبين بآداب الخطاب معه ﷾.

وتعريف الخير للتعميم، وتقديم الخبر للتخصيص، أي: بيدك التي لا يكتنه كنهها، وبقدرتك التي لا يقدر قدرها الخير كله، تتصرف به أنت وحدك حسب مشيئتك، لا يتصرف به أحد غيرك، ولا يملكه أحد سواك. يقول الرازي(١): «يفيد أن بيده الخير لا بيد غيره، وهذا ينافي أن يكون بيد غيره، ولكن لا ينافي أن يكون بيده الخير وبيده ما سوى الخير، إلا أنه خص الخير بالذكر لأنه الأمر المنتفع به، فوقع التنصيص عليه لهذا المعنى».

وقد ذكر المفسرون في حكمة نسبة الخير وحده في الآية إلى الله ﷾ وجوها عدة لا تخرج في مؤداها عما قلناه، من أبرزها:

١. إن هذا من آداب القرآن؛ حيث لم يُصرّح إلاّ بما هو محبوب لخلقه، يقول القشيري(٢): «﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُ﴾، ولم يذكر الشر، حفظاً لآداب الخطاب، وتفاؤلاً بذكر الجميل، وتطيرا من ذكر السوء». ويقول الآلوسي: «وإنما خص الخير بالذكر تعليما لمراعاة الأدب، وإلا فذكر الإعزاز والإذلال يدل على أن الخير والشر كلاهما بيده ﷾، وكذا قوله ﷾ المسوق لتعليل ما سبق، وتحقيقه: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فلا يبعد أن تكون الآية من باب الاكتفاء».

٢ . «إنما خَصَّ الخير بالذكر وإن كان قادراً على الخير والشر؛ لأنه المرغوب في فعله»(٣). وهذا داخل في أدب الخطاب أيضا.

٣. إن تخصيص الخير بالذكر؛ لأن في حصول الشر دخْلاً لصاحبه في الجملة؛ لأنه من أجزيه أعماله، وأما الخير ففضلٌ محض(٤).

٤. لأن المقام مقام دعاء، فيحسن معه ذكر الخير المطلوب وحده، أدبا في الدعاء، يقول القرطبي(٥): «وقيل: خص الخير لأنه موضع دعاء ورغبة في فضله».

٥. إن الخير يضاف إليه ﷾ إرادة محبة ورضا، والشر يضاف إلى مفعولاته، ولا يضاف إلى صفاته وأفعاله، بل كلها كمال لا نقص فيها(٦).

٦. تخصيص الخير بالذكر؛ لِما أنه مقضيّ بالذات، وأما الشرّ فمقضيٌّ بالعَرَض، وصادر بالتبع، إذ ما من شر جزئي إلا وهو متضمِّنٌ لخير

---

(١) التفسير الكبير: ٤/ ١٦٦.

(٢) تفسير القشيري: ١/ ٢٩٨.

(٣) النكت والعيون: ١/ ٢٢٥.

(٤) إرشاد العقل السليم: ١/ ٣٧٠.

(٥) الجامع لأحكام القرآن: ٤/ ٥٥.

(٦) البرهان: ٤/ ٦٠.

كلي⁽¹⁾. وما يتضمن خيرات كثيرة هو مستلزم لشر قليل، فلو تركت تلك الخيرات الكثيرة لذلك الشر القليل لصار تركها شرا كثيرا، فلما صدر ذلك الخير لزمه حصول ذلك الشر⁽²⁾.

يقول الآلوسي⁽³⁾: «والشر الذي فيه غير مقصود بالذات، بل إنما قضاه الله ﷻ لحكمة بالغة، وهو وسيلة إلى خير أعظم وأعم نفعا؛ والشر اليسير متى كان وسيلة إلى الخير الكثير كان ارتكابه مصلحة تقتضيها الحكمة، ولا يأباها الكرم المطلق، ألا ترى أن الفصد والحجامة وشرب الدواء الكريه وقطع السلعة ونحوها من الأمور المؤلمة، ولكونه وسيلة إلى حصول الصحة يحسن ارتكابه في مقتضى الحكمة، ويعد خيراً لا شراً، وصحة لا مرضاً، وكل قضاء الله ﷻ بما نراه شراً من هذا القبيل، وورد في الحديث: (لا تتهم الله ﷻ على نفسك)⁽⁴⁾.

فما قدر من المفاسد لتضمنه المصالح العظيمة اغتفر ذلك القدر اليسير في جنبها؛ لكونه وسيلة إليها، وما أدى إلى الخير فهو خير، فكل شر قدره الله ﷻ لكونه لم يقصد بالذات؛ لأن أحكام القضاء والقدر كما قالوا: جارية على سنن ما اتفقت عليه الشرائع كلها من النظر إلى جلب المصالح وذبّ المفاسد، بل بالعرض، لما يستلزمه من الخير الأعظم، والنفع الأتم، يصدق عليه بهذا الاعتبار أنه خير، فدخل في قوله ﷻ: ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُ﴾ فلذا اقتصر على الخير على وجه أنه شامل لما قصد أصلا ولما وقع استلزاما، وهذا من باب ليس في الإمكان أبدع مما كان، وقد درج حكماء الإسلام عليه».

٧. إنه خص الخير بالذكر لأنه المقصود بالسياق. يقول الزَمَخْشَريُّ⁽⁵⁾: «فَإن قلت: كيف قال ﷻ: ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُ﴾ دون الشّر؟ قلت: لأنّ الكلام إنّما وقع في الخيرِ الذِي يسوقه الله إلى المؤمِنين، وهو الذِي أنكرته الكفرة. فقال ﷻ:

---

(١) الحسنة والسيئة: ٤٤ وإرشاد العقل السليم: ١/ ٣٧٠.

(٢) التحرير والتنوير: ٣/ ٦٩.

(٣) روح المعاني: ٣/ ١١٥.

(٤) مسند أحمد: ٤/ ٢٠٤، برقم (١٧١٤٦ -١٧٨٤٧) حديث عمرو بن العاص، قال السيوطي والهيثمي: حديث عمرو بن العاص: أخرجه أحمد، في إسناده رشدين وهو ضعيف وفي رواية أخرى عند أحمد «لا تَتَّهِمِ اللهَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي شَيْءٍ قَضَى لَكَ بِهِ». مسند أحمد: ٥/ ٣١٨ رقم (٢١٦٥٨) حديث عبادة بن الصامت، وقال السيوطي والهيثمي: حديث عبادة بن الصامت في إسناده ابن لهيعة. الهيثمي: ١/ ٥٩ -٦٠، وجمع الجوامع، أو الجامع الكبير: ١/ ٤٢٤٤.

(٥) الكشاف: ١/ ٣٧٩.

﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُ﴾ تؤتيه أولياءك على رغم مِن أعدائِك، ولأن كل أفعال الله ﷾ من نافع وضارّ صادر عن الحكمة والمصلحة، فهو خير كله كإيتاء الملك ونزعه».

وهذه الوجوه في تعليل نسبة الخير إليه ﷾ دون الشر ليس بينها تعارض، فكلها تصلح أن تكون علة، يكمل بعضها بعضا؛ لأن تزاحم النكات إذا لم تتعارض لا مانع من اعتبارها جميعا، وهو اللائق ببلاغة القرآن الكريم. كما لا تتعارض مع التعليل بأدب الخطاب، انسجاما مع الطريقة المعهودة في القرآن الكريم بإضافة أشرف قسمي أفعاله إليه ﷾.

ثانياً: اختصاصه ﷾ بالأسماء الحسنى كما قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ الأعراف، وقوله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ الإسراء:١١٠، وقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٨﴾﴾ طه، وقوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ الحشر:٢٤.

فقد أمرنا الله بأن ندعوه بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، ووصف أسماءه بأنها كلها حسنى، فليس منها ما ليس موصوفا بذلك، ولما كانت أسماؤه ﷾ وصفاته توقيفية، فلا يجوز فيها غير ما ورد في الشرع بل ندعوه بأسمائه التي وردت في الكتاب والسنة على وجه التعظيم، مع مراعاة حسن الأدب فيما يضاف إليه ﷾ من الأسماء والصفات، كما هي عادة القرآن الكريم.

وأسماء الله الحسنى مثل القدوس والسلام تمنع نسبة الشّر والسوء والظلم إليه، مع أنه ﷾ الخالق لكلّ شيء، فهو الخالق للعباد وأفعالهم، والعبد إذا فعل القبيح المنهي عنه كان قد فعل الشّرّ والسوء. والرّبّ ﷾ هو الذي جعله فاعلاً لذلك، وهذا الجعل منه عدل وحكمة وصواب، فَجَعَلُه العبدَ فاعلاً خيرٌ وحسنٌ، والمفعول شرّ وقبيح⁽¹⁾.

يقول ابن تيمية: «وَلِهَذَا لَيْسَ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى اسْمٌ يَتَضَمَّنُ الشَّرَّ، وَإِنَّمَا يُذْكَرُ الشَّرُّ فِي مَفْعُولَاتِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ الحجر، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٦٧﴾﴾ الأعراف،

---

(١) ينظر: شفاء العليل: ابن القيم: ٣٥٩-٣٦٣، و٥٢٧-٥٣١، شرح العقيدة الطحاوية: ابن أبي العز: ٢٨٣-٢٨٦، ولوامع الأنوار: السفاريني: ١/ ٣٤١-٣٤٣.

وَقَوْلُهُ: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ ﴾ المائدة، وَقَوْلُهُ ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ﴾ البروج، فَبَيَّنَ سبحانه وتعالى أَنَّ بَطْشَهُ شَدِيدٌ وَأَنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ.

وَاسْمُ (الْمُنْتَقِمِ) لَيْسَ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى الثَّابِتَةِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ، وَإِنَّمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مُقَيَّدًا كَقَوْلِهِ سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ السجدة:٢٢، وَقَوْلِهِ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ إبراهيم:٤٧ وَالْحَدِيثُ الَّذِي فِي عَدَدِ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى الَّذِي يُذْكَرُ فِيهِ (الْمُنْتَقِمُ)، فَذُكِرَ فِي سِيَاقِهِ: ((الْبَرُّ التَّوَّابُ الْمُنْتَقِمُ الْعَفُوُّ الرَّءُوفُ))، لَيْسَ هُوَ عِنْدَ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ بِالْحَدِيثِ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ ﷺ، بَلْ هَذَا ذَكَرَهُ الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَوْ عَنْ بَعْضِ شُيُوخِهِ؛ وَلِهَذَا لَمْ يَرْوِهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْكُتُبِ الْمَشْهُورَةِ إلَّا التِّرْمِذِيُّ، رَوَاهُ عَنْ طَرِيقِ الْوَلِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ بِسِيَاقٍ، وَرَوَاهُ غَيْرُهُ بِاخْتِلَافٍ فِي الْأَسْمَاءِ وَفِي تَرْتِيبِهَا؛ يُبَيِّنُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ ﷺ. وَسَائِرُ مَنْ رَوَى هَذَا الْحَدِيثَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، ثُمَّ عَنْ الْأَعْرَجِ، ثُمَّ عَنْ أَبِي الزِّنَادِ، لَمْ يَذْكُرُوا أَعْيَانَ الْأَسْمَاءِ؛ بَلْ ذَكَرُوا قَوْلَهُ ﷺ: «إنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إلَّا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»، وَهَكَذَا أَخْرَجَهُ أَهْلُ الصَّحِيحِ كَالْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ وَغَيْرِهِمَا، وَلَكِنْ رُوِيَ عَدَدُ الْأَسْمَاءِ مِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى مِنْ حَدِيثِ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَرَوَاهُ ابْنُ مَاجَه، وَإِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ، يَعْلَمُ أَهْلُ الْحَدِيثِ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَيْسَ فِي عَدَدِ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى عَنْ النَّبِيِّ ﷺ إلَّا هَذَانِ الْحَدِيثَانِ، كِلَاهُمَا مَرْوِيٌّ مِنْ طَرِيقِ أَبِي هُرَيْرَةَ...»(١).

ومما يؤكد هذا أننا نجد أساليب التعبير في القرآن الكريم مع أفعال الإضلال المضافة إلى الله سبحانه وتعالى يأتي بها بالصيغة الفعلية التي تدل على الحدوث والتجدد، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ البقرة:٢٦، ﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ النساء:٨٨، ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا ﴾ الأنعام:١٢٥، ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ الرعد:٢٧.

ولم يأت بها بالصيغة الاسمية الدالة على الثبوت والاستمرار، فلم يقل عن نفسه (مضل)؛ لينبه بذلك على أن صفة الإضلال ليست من صفاته الذاتية، ولا يوصف بها، بينما يصف

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوى: ٨/ ٩٦-٩٧.

الشيطان بذلك فيقول: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ القصص:١٥، فهو وصف ثابت، وقد ينسبه إلى عمل المخلوق بصيغة العموم كقوله: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾ الزمر. ويصف الشيطان به بالصيغة الفعلية أيضا كقوله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ النساء:١١٩، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾ الحج. فوصف الشيطان بالإضلال وجعله وصفا ثابتا ومتجددا.

في حين وصف نفسه ﷾ بفعل الهداية بالوصف الثابت والمتجدد، فوصف نفسه بالصيغة الإسمية فقال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ الحج:٥٤، ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ الفرقان:٣١، ووصف نفسه بالصيغة الفعلية كقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ البقرة:٢١٣، ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ المائدة:١٦(١).

٣. قوله ﷾: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾﴾ الفلق، فقد ورد ذكر الشر داخلا في مفعولاته بطريق العموم، ولم يجعله من صفات فعله ﷾، فما هاهنا موصولة على الأرجح، أي: من شر الذي خلقه. وجوز بعضهم أن تكون (ما) مصدرية، وتأول المصدر بمعنى المفعول، أي: من شر مخلوقه(٢).

وعلى أي وجه تكون (ما) فإن الشر مسند في الآية إلى فعل المخلوق المفعول، لا إلى خَلْق الرب ﷾ الذي هو فعله وتكوينه، فإنه لا شر فيه بوجه ما. فإن الشر لا يدخل في شيء من صفاته، ولا في أفعاله، كما لا يلحق ذاته تبارك وتعالى. فإن ذاته لها الكمال المطلق، الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه. وأوصافه كذلك لها الكمال المطلق والجلال التام، ولا عيب فيها ولا نقص بوجه ما، وكذلك أفعاله كلها خيرات محضة، لا شر فيها أصلا، ولو فعل الشر ﷾ لاشتق له منه اسم، ولم تكن أسماؤه كلها حسنى، ولعاد إليه منه حكم، تعالى ربنا وتقدس عن ذلك(٣).

---

(١) ينظر: التعبير القرآني: ٣٢-٣٣.

(٢) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل: ابن جزي: ٢/ ٥٢٦، الدر المصون: ١١/ ١٥٨ وروح المعاني: ١٥/ ٥١٩.

(٣) ينظر: التفسير القيم: ٦١٤.

و(ما) عامة في الأرجح، والعموم هاهنا فيها عموم تقييدي وصفي، لا عموم إطلاقي(١)، والمعنى: من شر كل مخلوق فيه شر، أي: من شر كل ذي شر، فعمومها من هذا الوجه، وليس المراد الاستعاذة من شر كل ما خلقه الله ﷻ، فإن الجنة وما فيها ليس فيها شر، وكذلك الملائكة والأنبياء فإنهم خير محض، والخير كله حصل على أيديهم(٢).

ويؤكد هذا أيضا ما ورد في السنة من أحاديث صحيحة صريحة تدل على أن هذا هو الأدب مع الله ﷻ، منها ما أخرجه مسلم وغيره عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ؓ عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال: «وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين، إن صلاتي و نسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا من المسلمين، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، و اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك»(٣).

وروى النَّسائيّ بإسناد صحيح من حديث حذيفة ؓ قال: «يجتمع الناس في صعيد واحد، فأوّل مَدْعُو محمد، فيقول: لبّيك وسَعْدَيكَ، والخير في يديك، والشّر ليس إليك؛ المَهْدِيّ مَنْ هَدَيْت، عَبْدك وابن عَبْدَيْك، وبِك وَإِلَيْك، ولا مَلْجَأ ولا مَنْجَا منك إلاّ إليك، تَبَارَكْت وتَعَالَيْت»(٤).

فإن قوله ﷺ: (والخير في يديك، والشر ليس إليك) فيه تعليم أدب الخطاب، ولذلك قال عدد من العلماء في تفسير الحديث: أرشد به إلى استِعمال الأدب في الثناء على الله ﷻ، بأَنْ يُضاف إليه الحسن من الأمور دون المساوئ منها، على جهة رعاية الأدب(٥).

---

(١) ينظر: بدائع الفوائد: ٢/ ١٥ والتفسير القيم: ٦١٤.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز: ٥/ ٥٣٨، الهداية إلى بلوغ النهاية: ١٢/ ٨٥٠٨، الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ٢٥٦، والبحر المحيط: ٨/ ٥٣٣.

(٣) صحيح مسلم: ١/ ٥٣٤ رقم (٧٧١) باب الدعاء في صلاة الليل. ومسند أحمد: ١/ ١٠٢-١٠٣، برقم: (٧٦٣) حديث علي بن أبي طالب، وسنن أبي داود: ١/ ٤٨١ - ٤٨٢ برقم: (٦٤٩) باب ما يستفتح به الصلاة، والترمذي: ٥/ ٤٥٣-٤٥٤ برقم: (٣٤٢٢) والنسائي:٢/ ٤٦٧-٤٦٨ برقم: (٨٨٧) باب نوع آخر من الذكر.

(٤) السنن الكبرى: النسائي: ٦/ ٣٨١ برقم (١١٢٩٤). قال ابن حجر: صحيح الإسناد. فتح الباري:٨/ ٣٩٩-٤٠٠.

(٥) فتح الباري: ١١/ ٣٨٩ و١٣/ ٥٣٢.

يقول النووي(١): «قوله: (والخير كله في يديك، والشر ليس إليك) قال الخطابي وغيره: فيه الإرشاد إلى الأدب في الثناء على الله سبحانه وتعالى ومدحه، بأن يضاف إليه محاسن الأمور دون مساويها، على جهة الأدب. وأما قوله: (والشر ليس إليك) فمما يجب تأويله، لأن مذهب أهل الحق: أن كل المحدثات فعل الله سبحانه وتعالى وخلقه، سواء خيرها وشرها، وحينئذ يجب تأويله، وفيه خمسة أقوال:

أحدها: معناه لا يتقرب به إليك، قاله الخليل بن أحمد والنضر بن شميل وإسحق بن راهويه ويحيى بن معين وأبو بكر بن خزيمة والأزهري وغيرهم.

والثاني: حكاه الشيخ أبو حامد عن المزني وقاله غيره أيضا، معناه: لا يضاف إليك على انفراده، لا يقال: يا خالق القردة والخنازير، ويارب الشر، ونحو هذا، وان كان خالق كل شيء، ورب كل شيء، وحينئذ يدخل الشر في العموم.

والثالث: معناه: والشر لا يصعد إليك، إنما يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح.

والرابع: معناه: والشر ليس شرا بالنسبة إليك، فإنك خلقته بحكمة بالغة، وإنما هو شر بالنسبة إلى المخلوقين.

والخامس: حكاه الخطابي، أنه كقولك: فلان إلى بني فلان، إذا كان عداده فيهم، أو صفوه إليهم».

فالحسنة مضافة إليه؛ لأنه أحسن بها من كل وجه كما تقدم فما من وجه من وجوهها إلا وهو يقتضي الإضافة إليه. وأما السيئة فهو إنما يخلقها بحكمة، وهي باعتبار تلك الحكمة من إحسانه، فإن الرب لا يفعل سيئة قط، بل فعله كله حسن وحسنات، وفعله كله خير(٢).

وإن الخير يضاف إليه سبحانه وتعالى إرادة محبة ورضا، والشر لا يضاف إليه إلا إلى مفعولاته، ولا يضاف إلى صفاته وأفعاله، بل كلها كمال لا نقص فيها، وهذا معنى: «والشر ليس إليك». يقول الزركشي(٣): «وهو أولى من تفسير من فسره: لا يتقرب به إليك».

ومن الخطأ القول: إن المعنى، بيدك الخير والشر؛ لثلاثة أوجه، أحدها: أنه ليس في اللفظ ما يدل على إرادة هذا المحذوف، بل ترك ذكره قصدا أو بيانا أنه ليس بمراد. الثاني: أن الذي بيد الله سبحانه وتعالى

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم: ٦/ ٥٩ وينظر: مجموع الفتاوى: ١٤/ ٢٦٦، فتح الباري: ١٣/ ٥٣٢، عون المعبود: ٢/ ٢٧٠ وتحفة الأحوذي: ٨/ ٣١٩ .

(٢) ينظر: الحسنة والسيئة: ابن تيمية: ٤٤.

(٣) البرهان: ٤/ ٦٠.

نوعان: فضل، وعدل، فالفضل لإحدى اليدين، والعدل للأخرى، وكلاهما خير لا شر فيه بوجه.

الثالث: أن قول النبي ﷺ: «والخير في يديك والشر ليس إليك»، كالتفسير للآية، ففرق بين الخير والشر، وجعل أحدهما في يدي الرب سبحانه وتعالى، وقطع إضافة الآخر إليه، مع إثبات عموم خلقه لكل شيء(١).

المبحث الثاني

إظهار الفاعل مع أفعال الخير وإخفاؤه مع أفعال الشر

وجاء ذلك على وجوه، منها:

أولا: بناء الفعل على المجهول مع أفعال الشر، والتصريح بالفاعل مع الخير:

إن الطريقة المعهودة في القرآن الكريم هي أن أفعال الإحسان والرحمة والجود والخير تضاف إلى الله سبحانه وتعالى، فيذكر فاعلها منسوبة إليه، وإذا جيء بأفعال الجزاء والعقوبة والضر حذف الفاعل وبني الفعل معها للمفعول، أدبا في الخطاب، بإضافة أشرف قسمي أفعاله إليه سبحانه وتعالى. وهذا شائع في الاستعمال القرآني، وهو من باب الأدب مع الله في إضافة الخير إليه، وعدم إضافة الشر إليه(٢).

ورد هذا مع موضوعات عدة، منها:

١. إظهار الفاعل مع فعل النعمة والهداية، وإخفاؤه مع فعل النقمة والضلال: وأمثلته كثيرة، من ذلك قوله: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧ ﴾ الفاتحة، وذلك أنه لما ذكر النعمة والإحسان أضافها إليه، وأظهر فاعلها، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾، ولم يقل: المنعم عليهم، ولما ذكر الغضب لم يصرح بالفاعل وإنما بناه للمفعول فقال: ﴿ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ ﴾،

---

(١) ينظر: شفاء العليل: ابن القيم: ٢٧١.

(٢) بدائع الفوائد: ٢/ ٢٥٦ والبرهان: ٤/ ٦٠.

فلم يقل: غير الذين غضبت عليهم، ولما ذكر الضلال قال: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

دون القول: ولا الذين أضللتهم، تعليما لأدب في الخطاب مع الله سبحانه وتعالى، بإضافة أشرف أفعاله إليه. قال أبو السعود(١): «والعدول عن إسناد الغضب إليه سبحانه وتعالى كالإنعام؛ جرى على منهاج الآداب التنزيلية في نسبة النعم والخيرات إليه عز وجل دون أضدادها».

هذا زيادة على أن فيه نكتا من وجه آخر، فإنه لما كان طلب النعمة من الله سبحانه وتعالى ووصفه بالمنعم، فإنه لا يناسبه أن يصفه في نفس المقام بالمنتقم، يقول أبو حيان(٢): «وبناه للمفعول، لأن من طلب منه الهداية ونسب الإنعام إليه لا يناسب نسبة الغضب إليه، لأنه مقام تلطف وترفق وتذلل لطلب الإحسان، فلا يناسب مواجهته بوصف الانتقام».

ويقول ابن القيم في سياق تحليله لقوله سبحانه وتعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ (٧)﴾ الفاتحة، لهذا الأسلوب في هذه الآية فوائد، منها:

الفائدة الأولى: أن هذا جاء على الطريقة المعهودة في القرآن، بإضافة أشرف أفعاله إليه، من باب الأدب مع الله سبحانه وتعالى.

الفائدة الثانية: أن الإنعام بالهداية يستوجب شكر المنعم بها، وأصل الشكر ذكر المنعم والعمل بطاعته، وكان من شكره إبراز الضمير المتضمن لذكره سبحانه وتعالى الذي هو أساس الشكر، وكان في قوله: ﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ من ذكره وإضافته النعمة إليه ما ليس في ذكر المنعم عليهم لو قاله، فضمن هذا اللفظ الأصلين، وهما: الشكر والذكر المذكوران في قوله: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ (١٥٢)﴾ البقرة.

الفائدة الثالثة: أن النعمة بالهداية إلى الصراط هي لله وحده، وهو المنعم بالهداية، دون أن يُشرك أحد في نعمته، فاقتضى اختصاصها بها أن يضاف إليه بوصف الإفراد، فيقال: ﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: أنت وحدك المنعم المحسن المتفضل بهذه النعمة، وأما الغضب؛ فإن الله سبحانه وتعالى غضب على من لم يكن من أهل الهداية إلى هذا الصراط، وأمر عباده المؤمنين بمعاداتهم، وذلك يستلزم غضبهم عليهم موافقة لغضب ربهم عليهم، فموافقته سبحانه وتعالى تقتضي أن يغضب على من غضب عليه، ويرضى عمن رضي عنه، فيغضب لغضبه

---

(١) إرشاد العقل السليم: ١/ ١٩.

(٢) البحر المحيط: ١/ ٢٢.

ويرضى لرضاه، وهذا حقيقة العبودية، واليهود قد غضب الله عليهم، فحقيق بالمؤمنين الغضب عليهم، فحذف فاعل الغضب، وقال: ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ لما كان للمؤمنين نصيب من غضب الله عليه، بخلاف الإنعام فإنه لله وحده. فتأمل هذه النكت البديعة.

الفائدة الرابعة: أن المغضوب عليهم في مقام الإعراض عنهم، وترك الالتفات، والإشارة إلى نفس الصفة التي لهم والاقتصار عليها، وأما أهل النعمة؛ فهم في مقام الإشارة إليهم وتعيينهم، والإشادة بذكرهم، وإذا ثبت هذا؛ فالألف واللام في: (ٱلۡمَغۡضُوبِ) وإن كانتا بمعنى: (الذين)، فليست مثل: (الذين) في التصريح والإشارة إلى تعيين ذات المسمى، فإن قولك: الذين فعلوا، معناه: القوم الذين فعلوا، وقولك: الضاربون والمضروبون، ليس فيه ما في قولك: الذين ضَربوا أو ضُربوا، فتأمل ذلك.

فالذين أنعمت عليهم إشارة إلى تعريفهم بأعيانهم وقصد ذواتهم، بخلاف المغضوب عليهم فالمقصود التحذير من صفتهم، والإعراض عنهم، وعدم الالتفات إليهم، والمعول عليه من الأجوبة ما تقدم(١).

ولا شك أن في هذا توجيه للخلق المخاطبين بهذا القرآن بأن يأخذوا من أسلوب القرآن وفنه الخطابي لهم منهجا في الخطاب، ومن طريقته آداب التخاطب بينهم، بأن يختاروا أنسب الألفاظ وأحسن الأوصاف للمخاطب، ويضبطوا الخطاب مع كل بما يناسب مقامه ومرتبته، ويضربوا صفحا عما لا يليق بمقام المخاطب، ولا يتناسب مع توقير واحترام الآخرين.

ومنه قوله سبحانه وتعالى حكاية عن مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠﴾ الجن، فأضافوا إرادة الرشد إلى الرب، فقالوا: ﴿أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ وحذفوا الفاعل في إرادة الشر، وبنوا الفعل للمفعول فقالوا: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، أدبا في الخطاب بإضافة فعل الخير (الرشد) إليه سبحانه وتعالى، وعدم إضافة فعل الشر إليه(٢).

يقول ابن كثير(٣): «وهذا من أدبهم في العبارة حيث أسندوا الشر إلى غير فاعل، والخير أضافوه إلى الله عز وجل. وقد ورد في الصحيح: (والشر

---

(١) بدائع الفوائد: ٢/ ١٨-٢٠ بتصرف.

(٢) الإنصاف: ٤/ ١٦٨، البحر المحيط: ٨/ ٣٤٩ وبدائع الفوائد: ٢/ ٢٥٦.

(٣) تفسير ابن كثير: ٨/ ٢٤٠.

ليس إليك)». ويقول ابن عاشور(١): «والرشَد: إصابة المقصود النافع وهو وسيلة للخير، فلهذا الاعتبار جعل مقابلا للشر، وأسند فعل إرادة الشر إلى المجهول ولم يسند إلى الله ﷾، مع أن مقابله أسند إليه بقوله:﴿ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ﴾ جرياً على واجب الأدب مع الله ﷾ في تحاشي إسناد الشر إليه».

٢. إظهار الفاعل مع أفعال الأجر والثواب وإخفاؤه مع العذاب، ومنه قوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا (٣٠) وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا (٣١)﴾ الأحزاب، فأخفى فاعل الفعل مع العذاب فقال: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ﴾ ولم يقل: (نضاعف) وأظهره مع الأجر والرزق الكريم فقال: ﴿نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا﴾، فأظهر الفاعل في (نؤتها، وأعتدنا). ومما حسن البناء للمفعول وإخفاء الفاعل مع فعل العذاب، أن السياق هو في نساء النبيﷺ، لأنهن لسن ممن يتوقع منهن مثل هذا الفعل.

بينما إذ ورد لفظ (يضاعف) في موضع آخر في مجال الخير أظهر معه الفاعل كما في قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾ البقرة. وقد حسن هذا الأسلوب هنا أن السياق يتحدث عن أمهات المؤمنين، وهن طاهرات بتطهير الله ﷾ لهن من إتيان الفحش، فهو على سبيل الافتراض.

٣. إخفاء الفاعل في سياق التحليل والتحريم حينما يكون فيه ما يستكره، وإظهاره حينما لا يكون فيه مثل ذلك، كقوله ﷾: ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ﴾ البقرة ١٨٧، فحذف الفاعل وبناه للمفعول، لأن في ذكر الرفث ما يحسن معه أن لا يقترن بالتصريح بالفاعل.

وقال: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ﴾ البقرة ٢٧٥، فأظهر الفاعل لعدم وجود ما يستكره إضافته إلى الله ﷾. وكذلك قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ (٨٧)﴾ المائدة، فقال: (أحل الله)؛ لأنه ورد في سياق الطيبات فأظهر فاعل الإنعام بها على المؤمنين،

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٩/ ٢١٥.

تشريفا لهم وإيذانا باستحقاقهم، فقد تصدرها نداء المؤمنين. ونظيره قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ التحريم ١، فأظهر الفاعل في قوله: ﴿ أَحَلَّ ٱللَّهُ ﴾ لأنها في سياق تحريمه ﷺ لما أحل الله له من الطيبات، لأنه كان قد حرم على نفسه العسل كما يفيده سبب النزول(١).

وأما قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ﴾ الأحزاب:٥٠، فأظهر الفاعل وقال: ﴿ أَحۡلَلۡنَا ﴾، مع كونها في النكاح، لأن آية الأحزاب هي في حق النبي ﷺ خاصة، وفيها إشارة إلى ما اختص به في أحكام النكاح عن غيره، سواء في العدد أو الصفة والكيفية في العقد.

وأما في سياق التحريم، فإن طريقة القرآن الكريم تظهر إظهار الفاعل مع الأفعال التي ليس فيها ما يستكره كقوله ﴿ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ (١٥١) ﴾ الأنعام، إلى آخرها، فأظهر الفاعل هنا لأن موضوعها ليس فيه ما يستكره.

وإن كان فيه ما يستكره فإن القرآن يخفي الفاعل بأحد أسلوبين:

الأول: بناء الفعل للمجهول وإسناد الفعل إلى المفعول الذي وقع عليه التحريم، كقوله: ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ ﴾ المائدة:٣، وقوله: ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ ﴾ النساء، إلى آخرها، ثم قال: ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم ﴾ النساء:٢٤، فحذف الفاعل عند ذكر هذه الأمور.

الأسلوب الثاني: إضمار الفاعل وعدم التصريح به، كقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ (١٧٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ (١٧٤) ﴾ البقرة، فلم يظهر الفاعل مع تحريم الميتة وما بعدها، وإنما أضمره مستترا لدلالة ما سبق عليه، بينما أظهر بعد ذلك فاعل إنزال الكتاب مع إمكان إضماره. ومثله: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ (١١٤) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ

---

(١) صحيح البخاري: (٤٩١١) وتفسير ابن كثير: ٨/ ١٦٠، وقال: هو الصحيح.

ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٥﴾ ﴾النحل، وقوله:﴿ وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ ﴿١١٩﴾ ﴾الأنعام﴿ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ ﴾ الأنعام:١٤٣، فلم يظهر الفاعل مع مثل هذه الأمور، وإنما أضمره مستترا يعود على ما سبقه.

بينما إذا كانت المحرمات ليس فيها ما يستكره نجد القرآن يصرح بالفاعل وإن كان يصح لغة إضماره، كقوله في تحريم الشرك:﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ المائدة:٧٢، وقوله: ﴿ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ ﴾ الأنعام:١٥١، وقوله: ﴿ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ الأعراف، وفي قتل النفس قال:﴿ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ ﴾ الإسراء:٣٣، وقوله:﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴾ الفرقان:٦٨.

وانظر كيف أنه كان دائما يظهر الفاعل مع رزق الطيبات، كقوله: قوله:﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ ﴾ البقرة: ٥٧،١٧٢، والأعراف: ١٦٠، وطه: ٨١.

ثم لاحظ ما هو ألطف، فحيث ذكر اليهود قال: ﴿ فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ ﴾ النساء:١٦٠، فمع اقتران الحكم بالطيبات فقد أخفى الفاعل مع فعل التحليل، وأظهره مع فعل تحريم الطيبات عليهم، بينما قال في حق هذه الأمة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ المائدة:٨٧. فأظهر نفسه ﷾ فاعل التحليل، ونسبه إليهم مع فعل التحريم(١).

٤. إظهار الفاعل مع فعل تزيين الخير، وإخفاؤه مع ضده: فحيثما ورد فعل تزيين الأمور الحسنة وتحسينها يظهر نفسه ﷾ فاعل الفعل، ويبنى الفعل للمجهول ويخفى الفاعل مع تزيين الأمور غبر الحسنة، ومثاله: تزيين الشهوات في قوله:﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ آل عمران:١٤، فلما ذكر الشهوات من النساء بنى الفعل على المجهول، وأخفى الفاعل، أدبا في

---

(١) بدائع الفوائد: ٢/ ٢٥٦-٢٥٧.

الخطاب مع الله ﷻ(١).

وكذلك في التزيين للكافرين أعمالهم، وهو نسق مطرد في القرآن الكريم، من ذلك قوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢٢﴾ الأنعام، فلما ذكر الإحياء والنور صرح بالفاعل فقال: (فأحييناه) (وجعلنا)، ولما ذكر الظلمات قال: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ولم يقل: كمن جعلناه في الظلمات، ولما ذكر تزيين أعمال الكافرين لهم بنى فعل التزيين على المفعول وأخفى الفاعل.

ومنه قوله: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ يونس:١٢، وقوله: ﴿زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ التوبة:٣٧، ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ﴾ غافر:٣٧، ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ﴾ فاطر:٨، ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ١٤﴾ محمد، ﴿بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ الفتح:١٢، وتزيين مكرهم: ﴿بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ الرعد:٣٣، وتزيين قتل أولادهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ﴾ الأنعام:١٣٧.

بينما في سياق الحسن والجمال يظهر الفاعل الحقيقي للتزيين، فيسند التزيين إلى نفسه ﷻ، مثل تزيين السماء وتجميلها وتسخيرها كقوله: ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ١٦﴾ الحجر، فأظهر نفسه فاعل الفعل الحسن فقال: (زيناها)، ومثله قوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ٦﴾ الصافات، ﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ فصلت:١٢، ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ٦﴾ ق، ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ الملك:٥.

وكذلك يظهر نفسه في سياق تزيين الإيمان في قلوب المؤمنين، كقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ

---

(١) بدائع الفوائد: ٢/ ٢١٤ والتحرير والتنوير: ٣/ ١٨٠.

وَٱلۡعِصۡيَانَۚ ﴾ الحجرات:٧.

ومثله إذ يذكر لفظ الزينة فيمنحها لمن شاء، فإنه يسند فعل إيتائها إلى نفسه ﷻ، لما فيها من الجمال والحسن والخير كقوله: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ﴾ يونس:٨٨. وكذلك في جعل ما في الأرض زينة لها وللعباد، كقوله: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ۝٧ ﴾ الكهف، ومثله: ﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ ﴾ الأعراف:٣٢، فأظهر نفسه المنعم بنعمة الزينة تذكيرا لهم بشكرها.

ولم يرد إظهار نفسه فاعل التزيين في سياق الكفر والضلال أو ما في هذا المعنى إلا في موضعين، وهما قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ﴾ الأنعام:١٠٨، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ۝٤ ﴾ النمل.

وسبب ذلك والله أعلم: أن آية الأنعام هي في سياق ذكر الأعمال لعموم الناس، وعموم الأمم والملل والنحل، ولا تختص بتزيين الأعمال للكافرين، ألا ترى إلى قوله: ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٠٨ ﴾ الأنعام، أي: (أننا زينا لكل جماعة اجتمعت على عمل من الأعمال، من طاعة الله، أو معصيته)(١).

فكما أن الإيمان مزين في قلوب المؤمنين، فإن الكفر مزين في قلوب الكافرين، فلما كان فعلا لتزيين مشتمل على الإيمان في قلوب المؤمنين، ناسبه إظهار نفسه فاعل التزيين، وبذلك فهي لم تخرج عن القاعدة العامة في فعل التزيين.

ولم يخرج -فيما يظهر- عن القاعدة إلا آية سورة النمل السابقة، ويبدو أن في هذا الاستثناء إشارة وتنبيها إلى الفاعل الحقيقي لفعل التزيين بكل أحواله ووجوهه، حتى لا يتوهم باطراد النسبة مع هذا الفعل إلى الشيطان بأنه هو فاعل ذلك على الحقيقة وخالق الفعل.

ويكون إضافة تزيين أعمالهم التي هم فيها إلى الله لجهتين:

الأولى: من جهة ما ركب فيهم من الشهوات والأماني التي توافق طباعهم وأنفسهم؛ والكفر نفسه ليس بمزين ولا مستحسن، ولكن تزيينه واستحسانه هو موافقة ما يعمل من الأعمال طباعه، إذ الجهة التي تضاف إلى الشيطان هو

---

(١) جامع البيان: ١٢/ ٣٧.

دعاؤه وتمنيه إلى ما يوافق طباعهم؛ فمن هذه الجهة يجوز إضافته إلى الشيطان، والجهة التي تضاف إلى اللهّ هو ما ركب فيهم من الشهوات والأماني وجعل الطباع موافقة لها؛ لذا حمد أحدهما وأثيب على فعله، وذم الآخر وعوقب لسوء اختياره.

الثانية: أن يكون إضافة ذلك إلى الله لما خلق أفعالهم وأعمالهم التي عملوها، وأخرجها من العدم إلى الوجود، وهي من هذه الجهة فعله(١).

ثم إنه قد تقدمه فعل الكفر منهم بعدم إيمانهم بالآخرة فحسن ترتيب التزيين عليه؛ لأنه كان من قبيل الجزاء لهم على كفرهم، فهو عقوبة لهم(٢)، فكأن التزيين لم يكن ابتداء، وإنما هم الذين جلبوه لأنفسهم، يقول الزجاج: (أي: جعلنا جزاءهم على كفرهم أَنْ زَيَّنَا لهم مَا هُمْ فيه)(٣). وهذا كقوله في مقدمة سورة البقرة، فقوله ﷾: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ كقوله ﷾: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ٦﴾ البقرة، وقوله﷾: ﴿زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ كقوله جل وعلا: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ البقرة:٧.

فلما كان الكفر منهم اختيارا، وأن الإنذار لا ينفع فيهم، استتبعه الختم جزاء على كفرهم، فجاء هذا التعبير وبهذا التركيب من باب تحقيق الخبر، ويكون المعنى: أن استمرارهم على الكفر، وأنهم بحيث لا يتوقع منهم الإيمان ساعة فساعة؛ أمارة لرقم الشقاء عليهم في الأزل، والختم على قلوبهم، وأنه ﷾ زين لهم سوء أعمالهم، فهم لذلك في تيه الضلال يترددون، يدل على هذا إيقاع لفظ المضارع (يؤمنون) في صلة الموصول، لفيد أن هذا الحكم منوط بالاستمرار على عدم إيمانهم، وإيقاع الماضي (زينا) في خبره، للإيماء بأن التزيين حكم تقرر أزلاً، ورتب قدرا لعلمه بكفرهم واستمرارهم عليه، فهو أثر من آثار التكوين بحسب ما يطرأ على النفوس من التطور(٤).

ثم إن التركيب يحتمل أن يكون المراد تزيين الطاعات، كما يحتمل السيئات، ويؤيده أن لفظ (أعمالهم) يفيد العموم، فيحتمل: زين جميع

---

(١) ينظر: تأويلات أهل السنة: ٨/ ٩٦ والبحر المحيط: ٢/ ١٣٨.

(٢) ينظر: بحر العلوم: السمرقندي: ٢/ ٥٧٢، المحرر الوجيز: ٤/ ٢٤٨ وتفسير ابن كثير: ٦/ ١٧٨.

(٣) معاني القرآن وإعرابه: الزجاج: ٤/ ١٠٨.

(٤) ينظر: روح المعاني: ١٠/ ١٥٤ والتحرير والتنوير: ١٩/ ٢٢١.

أعمالهم حسنا كان العمل أو سيئا(١)، ويحتمل أحدهما، على أن الأعمال المزينة هي الشريعة التي كان الواجب أن تكون أعمالهم، فأخبر الله ﷾ على جهة الذكر لنقصهم أنه بفضله ونعمته زين الدين وبينه، لكن هؤلاء يَعْمَهُونَ، ويعرضون، ويحتمل زين لهم أعمالهم السيئة على السواء، بإقامة الدليل على حسن الطاعات، ويكون ضده في السيئات(٢).

يقول أبو السعود(٣): ﴿ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ القبيحةَ حيثُ جعلناها مشتهاةً للطَّبعِ محبوبةً للنَّفسِ، أو الأعمالَ الحسنةَ ببيانِ حُسنها في أنفسِها حالاً، واستتباعِها لفنونِ المنافعِ مآلاً، وإضافتُها إليهم باعتبارِ أمرِهم بها وإيجابِها عليهم، ...والفاء على الأول: لترتيبِ المسبَّبِ على السَّببِ، وعلى الثَّاني: لترتيبِ ضدِّ المُسبَّبِ على السَّببِ، كما في قولك: (وعظتُه فلم يتَّعظ)، وفيه إيذانٌ بكمالِ عتوِّهم ومكابرتِهم وتعكيسهم في الأمور)).

والاحتمال الثاني نقل القول به عن الحسن البصري(٤).

ثانيا: التصريح بالمفعول مع الخير، وإضماره مع أفعال الضر:

ومن باب الأدب في نسبة الخير إليه ﷾، وعدم نسبة خلافه إليه، أن القرآن الكريم حينما يذكر إيصال الله ﷾ الخير إلى الناس، فإنه يصرح بذكر المفعول، تبشيرا وتذكيرا بالفضل، ودعوة إلى الشكر، وحينما يذكر مقابله من إيقاع الضر من منعه ﷾ وصول رحمته أو رزقه، أو نحو ذلك من مفعولات الخير، فإنه يحذف المفعول الذي يفهم من السياق، وكأنه يشير إلى أن منع الخير عن الناس ليس مطلوبا، ولا مرغوبا بفعله، وإنما استدعاه فعلهم، وأمثلته كثيرة، منه: قوله ﷾: ﴿ مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢ ﴾ فاطر.

فأنت تلاحظ أنه في حصول الخير والرحمة صرح بما يفتحه للناس وهو الرحمة، بينما في خلافها قال: ﴿ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ ﴾، فلم يصرح بعدم

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب: ٢٤/ ٥٤٢.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز: ٤/٢٤٨، البحر المحيط: ٨/٢٠٨، الجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ١٥٥، أنوار التنزيل: ٤/ ٧٦ وروح المعاني: ١٠/ ١٥٤. ونسب الماتريدي تأويل التزيين على الأعمال الحسنة إلى المعتزلة. ينظر: تأويلات أهل السنة: ٨/ ٩٦ وهو قول الزمخشري في الكشاف: ٣/ ٣٤٨.

(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٦/ ٢٧٢، روح المعاني: ١٠/ ١٥٤.

(٤) ينظر: الكشاف: ٣/ ٣٤٨ البحر المحيط: ٨/ ٢٠٨ وروح المعاني: ١٠/ ١٥٤. وحمل الزمخشري التزيين على المجاز، عملا بمبدأ الأصلح عن المعتزلة.

إرسال الرحمة، فلم يقل: فلا مرسل للرحمة، وكأن المراد غير الرحمة، ثم ألمح إلى هذا بتأنيث الضمير أولاً: ﴿ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ فأعاده إلى الرحمة صريحا، بينما ذكره مع خلافها ﴿ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ ﴾ ليعود على ما يمسك وكأنها ليست مقصودة هنا، إشعارا بأن رحمته لا تنقطع عن العباد، وأنها تسبق غضبه(١).

يقول الرازي(٢): «وفي الآية دليل على سبق رحمته غضبه من وجوه: أحدها: التقديم حيث قدم بيان فتح أبواب الرحمة في الذكر، وهو وإن كان ضعيفاً لكنه وجه من وجوه الفضل. وثانيها: هو أن أنث الكناية في الأول فقال: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ وجاز من حيث العربية أن يقال: له، ويكون عائداً إلى (ما)، ولكن قال ﷾: ﴿ لَهَا ﴾ ليعلم أن المفتوح أبواب الرحمة ولا ممسك لرحمته، فهي وصلة إلى: من رحمته. وقال عند الإمساك: ﴿ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ ﴾ بالتذكير ولم يقل: لها، فما صرح بأنه لا مرسل للرحمة، بل ذكره بلفظ يحتمل أن يكون الذي لا يرسل هو غير الرحمة، فإن قوله ﷾: ﴿ وَمَا يُمْسِكْ ﴾ عام من غير بيان وتخصيص، بخلاف قوله ﷾: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ ﴾ فإنه مخصص مبين. وثالثها: قوله: ﴿ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ أي: من بعد الله، فاستثنى ههنا، وقال: لا مرسل له إلا الله، فنزل له مرسلا. وعند الإمساك قال: لا ممسك لها، ولم يقل: غير الله، لأن الرحمة إذا جاءت لا ترتفع، فإن من رحمة الله في الآخرة لا يعذبه بعدها هو ولا غيره، ومن يعذبه الله فقد يرحمه الله بعد العذاب، كالفساق من أهل الإيمان».

ومنه قوله ﷾: ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ (٢٦) ﴾ الرعد، وقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا (٣٠) ﴾ الإسراء: وقوله: ﴿ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ ﴾ القصص:٨٢، وقوله: ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) ﴾ العنكبوت، وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓۚ ﴾ سبأ:٣٩، وقوله: ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ الشورى:١٢، فمع فعل البسط

---

(١) ينظر: أنوار التنزيل: ٤/ ٢٥٣، إرشاد العقل السليم: ٧/ ١٤٧ وروح المعاني: ١١/ ٣٣٨-٣٣٩.

(٢) مفاتيح الغيب: ٢٦/ ٢٢٢.

صرح بالمفعول ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾، ومع قبضه وتقديره حذف المفعول، فقال: (ويقدر)، فقدم أولا بسط الرزق تنبيها على أنه المقدم بالإرادة، ثم حذف المفعول مع التضييق والتقليل، وتركه مطلقا، ليحتمل أن المقدر غير الرزق، تلطفا في الخطاب، وإشعارا بأن الرحمة سابقة على خلافها، وأنها المرادة بالذات وبالقصد.

ثالثا: إظهار الفاعل في سياق المدح، وحذفه في سياق التوبيخ والذم:

ومنه قوله ﷻ: ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾ البقرة:٣٥، وقوله: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾ الأعراف:١٩،فأظهر نفسه الفاعل في آية سورة البقرة إذ كان السياق سياق مدح، وحذفه في آية الأعراف إذ كان السياق للوم، ألا ترى أنه في سورة البقرة عطف الأكل بالواو على السكنى، ليزيد بالتغاير من الإكرام، فيجمع له بين السكن والأكل، بينما في الأعراف عطفه بالفاء الدالة على ترتيب الأكل على السكنى، فكأن الأكل يكون بعد اتخاذ السكنى، وليس كذلك في البقرة، وزاد في سورة البقرة (رغدا)، ولم يذكر في الأعراف، وقال في البقرة: ﴿حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾؛ لِأَنَّهُ أَعَمُّ، وفي الأعراف: "من حَيْثُ" وهي لا تعطي عموم معنى ﴿حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾؛ لأن (من) تدل على الابتداء من غاية(١).

ومثل ذلك ما جاء في قوله ﷻ: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدًا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٨﴾ البقرة، وقوله: ﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدًا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٦١﴾ الأعراف، يقول السيوطي(٢): «وَنُكْتَتُهُ أَنَّ آيَةَ الْبَقَرَةِ فِي معرض ذكر النعم عليهم حيث قال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ﴾ إِلَى آخِرِهِن البقرة: ٤٠ و٤٧، فَنَاسَبَ نِسْبَةَ الْقَوْلِ إِلَيْهِ ﷻ، وَنَاسَبَ قَوْلَهُ: ﴿رَغَدًا﴾؛ لِأَنَّ الْمُنْعَمَ بِهِ أَتَمُّ، وَنَاسَبَ تقديم: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدًا﴾ وَنَاسَبَ ﴿خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡ﴾؛ لِأَنَّهُ جَمْعُ كَثْرَةٍ، وَنَاسَبَ الْوَاوَ فِي ﴿وَسَنَزِيدُ﴾ لِدَلَالَتِهَا عَلَى الْجَمْعِ بَيْنَهُمَا،

---

(١) ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل: ٢٢٢، البرهان: ١/ ١٢٨، الإتقان: ٣/ ٣٩١ ومعترك الأقران: ١/ ٦٧.

(٢) الإتقان: ٣/ ٣٩٢-٣٩٣ وينظر: درة التنزيل وغرة التأويل: ٢٢٣، أسرار التكرار ٢٨ ومعترك الأقران: ١/ ٦٨.

وَنَاسَبَ الْفَاءَ فِي ﴿ فَكُلُوا ﴾؛ لِأَنَّ الْأَكْلَ مُتَرَتِّبٌ عَلَى الدُّخُولِ، وَآيَةُ الْأَعْرَافِ افْتُتِحَتْ بِمَا فِيهِ تَوْبِيخُهُمْ وَهُوَ قَوْلُهُمْ: ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴿١٣٨﴾ ﴾ الأعراف، ثُمَّ اتِّخَاذُهُمُ الْعِجْلَ فَنَاسَبَ ذَلِكَ: ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ﴾، وَنَاسَبَ تَرْكُ ﴿ رَغَدًا ﴾، وَالسُّكْنَى تُجَامِعُ الْأَكْلَ فَقَالَ: ﴿ وَكُلُوا ﴾ وَنَاسَبَ تَقْدِيمُ ذِكْرِ مَغْفِرَةِ (الْخَطَايَا)، وَتَرْكُ الْوَاوِ فِي ﴿ سَنَزِيدُ ﴾».

وهذا كثير في القرآن الكريم ذكرنا منه أمثلة كثيرة، ومنه: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ البقرة:١٢١، ﴿ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ البقرة:١٠١، والفرق بين الموضعين أنه حيث ذكر الفاعل كان من آتاه الكتاب واقعا في سياق المدح، وحيث حذفه كان من أوتيه واقعا في سياق الذم أو منقسما، وذلك من أسرار القرآن الكريم ومثله: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ فاطر:٣٢، وقال: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ ﴾ الأعراف: ١٦٥، وبالجملة فالذي يضاف إلى الله ﷻ كله خير وحكمة ومصلحة وعدل والشر ليس إليه(١).

المبحث الثالث

إسناد أفعال الشر والعيب إلى السبب المجازي

وهذا أسلوب آخر من أساليب التعبير في القرآن الكريم، وهو أنه يسند فعل الحسن والخير والهداية إليه ﷻ، ويسند فعل الغواية والإضلال والعيب والشر والضر ونحو ذلك إلى السبب المجازي، وقد جرى هذا في سياقات وموضوعات متعددة، وهو مطرد في القرآن الكريم، وهذا الأسلوب بجري على منحيين في القرآن:

الأول: إسناد أفعال الشر والضر إلى السبب القريب:

وذلك بأن يسند الفعل إلى الشيطان، أو النفس، فيصرح بأنه فاعله، إذا لم يكن الفعل من الأفعال الحسنة والمرغوب فيها، بينما يسنده إلى نفسه ﷻ مع ما يقابل تلك الأفعال، فيصرح بأنه ﷻ هو المنعم بها، وأنه الفاعل لها. ومن ذلك:

١. نسبة فعل تزيين أعمال الكافرين إلى الشيطان، بوصفه المسوس به، والمتسبب بإيقاعهم في الضلال، كقوله: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ الأنعام:٤٣ ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ الأنفال:٤٨، ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ

---

(١) ينظر: بدائع الفوائد: ٢/ ٢١٥.

ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴾ النمل:٢٤، ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ﴾ العنكبوت:٣٨، أو إلى قرنائهم، كقوله: ﴿ وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ ﴾ فصلت:٢٥. وكل هذا يجري ضمن قاعدة حسن الأدب مع الله سبحانه وتعالى.

٢. إسناد فعل الغواية والضلال إلى النفس الواقعة فيه، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ٦٣ ﴾ القصص.

فإن الغواية والهداية من الله جميعا، ولكنهم قالوا: ﴿ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَا ﴾ وأصل الكلام أي: إنما أغوينا بما قضيت لنا ولهم الغواية والضلالة، لكن القول جاء ينسب الغواية إلى أنفسهم بإغواء بعضهم بعضا، لحفظ الأدب مع الله، ولم يقولوا: ﴿ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَا ﴾ كما قال إبليس صريحا ولم يحفظ الأدب: ﴿ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ الحجر:٣٩، وقال: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦ ﴾ الأعراف.

ومن هنا جاء التوجيه الإلهي للنبي ﷺ: ﴿ قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ ٥٠ ﴾ سبأ، فإنه من باب مراعاة الأدب مع الله في كل حال. فإن كان خيرا وتوفيقا فهو من الله، وإن كان غير ذلك فمن النفس، والله بريء منه، وكما قال عبد الله بن مسعود ؓ لما سئل عن تلك المسألة في المفوضة: «أقول فيها برأيي، فإن يكن صوابا فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه»(١). وقال مثلها أبو بكر الصديق ؓ إذ سئل عن الكلالة: فعن الشعبي قال: «سئل أبو بكر عن الكلالة فقال: إني أقول فيها برأيي، فإن كان صوابا فمن الله وحده لا شريك له، وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان، والله منه بريء، أراه ما خلا الوالد والولد»(٢).

وتأمل طريقة القرآن في إضافة الشر إلى سببه ومن قام به في هذه الأمثلة كقوله: ﴿ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾، وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡ ﴾ وقوله: ﴿ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن

---

(١) مسند أحمد: ١/ ٤٧٧.

(٢) تفسير الطبري: ٤/ ٢٨٣ وسنن البيهقي ٦/ ٢٢٤ رقم (١٢٠٥٣).

كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، وهو في القرآن أكثر من أن يذكر هاهنا. وإنما المقصود التمثيل(١).

٣. نسبة النسيان إلى الناسي نفسه، كقوله: ﴿ سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾ الأعلى:٧، ولم يقل فلا ننسيك، أو نجعلك تنسى، وإنما جعله هو فاعل النسيان إن وقع، بينما الإقراء نسبه إلى نفسه ﷾. مع أن كلا من الإقراء والنسيان واقعان بفعل الله ﷾، ولذلك قال في الآية التي بعدها: ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾ الأعلى:٧. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بئس ما لأحدهم أن يقول: نسيت آية كيت وكيت، بل هو نُسِّي»(٢).

يقول ابن كثير(٣): «وفي حديث ابن مسعود أدب في التعبير عن حصول ذلك، فلا يقول: نسيت آية كذا، فإن النسيان ليس من فعل العبد، وقد يصدر عنه أسبابه من التناسي والتغافل والتهاون المفضي إلى ذلك، فأما النسيان نفسه فليس بفعله؛ ولهذا قال: (بل هو نُسِيَ)، مبني لما لم يسم فاعله، وأدب -أيضا- في ترك إضافة ذلك إلى الله ﷾، وقد أسند النسيان إلى العبد في قوله: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ٢٤ ﴾ الكهف، وهو، والله أعلم، من باب المجاز السائغ بذكر المسبب وإرادة السبب».

ثم قال لنبيه ﷺ: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ الكهف:٢٤، يعني: إن قلت سأفعل كذا غدا، ثم نسيت أن تقول إن شاء الله، ثم تذكرت بعد ذلك فاذكر ربك، أي: قل إن شاء الله، لتتدارك بذلك الأدب مع الله الذي فاتك عند وقته بسبب النسيان، وتخرج من عهدة النهي في قوله ﷾: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾ الكهف:٢٤(٤).

وعلى هذا جاء قول فتى موسى عليه السلام: ﴿ قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ ﴾ الكهف:٦٣، فلما ذكر النسيان نسبه إلى المتسبب فيه بوسوسته وهو الشيطان من باب حسن أدب، وإن كان ذلك في الحقيقة هو من فعل الله ﷾(٥).

٤. ومما هو ألطف من هذا وأدق معنى، أسلوب التعبير مع فعل العيب أو المرض، بأن ينسب الفاعل معها إلى النفس، وينسب فعل

---

(١) التفسير القيم: ٦١٩ وبدائع الفوائد: ٢/ ٢١٤.

(٢) صحيح البخاري: رقم (٥٠٣٩) وصحيح مسلم: رقم (٧٩٠) وسنن النسائي الكبرى: رقم (٨٠٤٢).

(٣) تفسير ابن كثير: ١/ ٧٦.

(٤) أضواء البيان: ٧/ ٣٦٤.

(٥) البحر المحيط: ٧/ ٤٧٢.

الخير الذي يقابلها إلى الله ﷾، مثل ما جاء في جواب الخضر لسيدنا موسى عليهما السلام عما فعله، حيث قال في إعابة السفينة: ﴿ فَأَرَدتُّ ﴾ في قوله: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ٧٩ ﴾ الكهف، وقال في قتل الغلام: ﴿ فَأَرَدۡنَآ ﴾ في قوله: ﴿ وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ٨٠ فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ٨١ ﴾ الكهف، وفي إقامة الجدار: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾ في قوله: ﴿ وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ٨٢ ﴾ الكهف، فلما ذكر العيب للسفينة بقوله: ﴿ أَنۡ أَعِيبَهَا ﴾ نسبه إلى نفسه أدبا مع الربوبية، ومحض الفعل لنفسه ولم يشرك الله معه في إرادته ﴿ فَأَرَدتُّ ﴾، ولما كان قتل الغلام مشترك الحكم بين المحمود والمذموم استتبع نفسه مع الحق، ليكون المحمود من الفعل وهو راحة أبويه المؤمنين من كفره واستبدالهما خيرا منه عائدا على الحق ﷾، لا سيما وأن الإبدال فعل مستقبلي لا يعلمه ولا يقدر عليه إلا الله، والمذموم ظاهرا وهو قتل الغلام البريء في الظاهر وإزهاق الروح وإراقة الدم عائدا عليه، فأتى بالفعل مشترك الإرادة: ﴿ فَأَرَدۡنَآ ﴾، وفي إقامة الجدار إذ كان خيرا محضا نسبه للحق وحده، فقال: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾، فليس فيه ما يستكره لا ظاهرا ولا باطنا، مع أنه بين أن الجميع من حيث العلم التوحيدي من الحق بقوله: ﴿ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ﴾ الكهف:٨٢، فكل هذه الأفعال هي من الله حقيقة. وأن الكل بقضاء الله وقدره(١).

ومنه قول إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ٨١ ﴾ الشعراء فنسب الخلق والهداية والإحسان بالطعام والسقي إلى الله ﷾، ولما جاء إلى ذكر المرض قال: ﴿ وَإِذَا مَرِضۡتُ ﴾، ولم يقل: أمرضني، وقال: ﴿ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴾، فاسند الفعل قبل وبعد إلى الله، وأسند المرض إلى نفسه، إذ هو معنى نقص

---

(١) أسرار التكرار في القرآن:١٢٢، الإنصاف: ٢/ ٤٩٦ هامش الكشاف، بدائع الفوائد: ٢/ ٢٥٦ والبرهان: ٤/ ٦٠ – ٦١.

ومعابة وليس من جنس النعم المتقدمة(١).

يقول القشيري(٢): «لم يَقُلْ: وإذا أمرضني، لأنه حفظ أدبَ الخطاب».

وقد يقال: إن الموت قد يكون بتفريط الإنسان، وقد أضافه ﷻ إلى نفسه، فما الفرق بين نسبة الموت ونسبة المرض في مقتضى الأدب؟ وأجيب عنه: «بأن الموت قد علم به بأنه قضاء محتوم من الله ﷻ على سائر البشر، وحكم عامّ لا يخص، ولا كذلك المرض، فكم من معافى منه قد بغته الموت، فالتأسي بعموم الموت لعله يسقط أثر كونه بلاء، فيسوغ في الأدب نسبته إلى الله ﷻ. وأما المرض، فلما كان مما يخص به بعض البشر دون بعض، كان بلاء محققا. فاقتضى العلوّ في الأدب مع الله ﷻ أن ينسبه الإنسان إلى نفسه، باعتبار ذلك السبب الذي لا يخلو منه. ويؤيد ذلك أن كل ما ذكره مع المرض، أخبر عن وقوعه بتّا وجزما؛ لأنه أمر لا بد منه. وأما المرض، فلما كان قد يتفق وقد لا، أورده مقرونا بشرط (إذا) فقال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾، وكان ممكنا أن يقول: والذي يمرضني فيشفيني، كما في غيره، فما عدل عن المطابقة المجانسة المأثورة، إلا لذلك»(٣).

٥. وتأمل قوله: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ يوسف:٣٤، فأضافه إلى نفسه حيث صرف عنه الكيد، ولما ذكر السجن أضافه إليهم فقال: ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ يوسف: ٣٥، وإن كان ﷻ هو الذي السبب الحقيقي لسجنه، لكنه أضاف ما منه الرحمة إليه، وما منه الشدة إليهم.

الثاني: إسناد أفعال الشر إلى المفعول نفسه:

وهذا أسلوب آخر من أساليب الأدب في الخطاب، وذلك بأن ينسب الفعل المتضمن شرا، إلى نفس المفعول، وهو الواقع على الإنسان من شر وسيئة ومصيبة وضر، فيجعلها هي الفاعل، وهو مطرد ومتنوع الأساليب، وبيانه كالآتي:

١. نسبة فعل المصيبة إلى المصيبة، وفعل الفضل إليه ﷻ، كقوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧٣)﴾ النساء.

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز: ٢/ ٥٦٧، مفاتيح الغيب: ١٠/ ١٤٨ و٢٤/ ٥١٢، الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ٢٩٥ وبدائع الفوائد: ٢/ ١٥.

(٢) تفسير القشيري: ٥/ ٤٢٨.

(٣) محاسن التأويل: القاسمي: ٧/ ٤٦٠ .

فلما ذكر إصابتهم بالمصيبة لم ينسبها إلى نفسه، وإنما قال: ﴿ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ ﴾، أدبا مع الله ﷾، ولما ذكر إصابتهم الفضل كالغنيمة والفتح نسبه إلى نفسه ﷾: ﴿ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾، يقول الآلوسي(١): «وفي نسبة إصابة الفضل إلى جانب الله ﷾ دون إصابة المصيبة تعليم لحسن الأدب مع الله ﷾، وإن كانت المصيبة فضلا في الحقيقة».

وقد اطرد هذا الأسلوب القرآني مع ذكر المصيبة، كقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ (١٥٦) ﴾ البقرة، وقوله: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ (١٦٥) ﴾ آل عمران، وقوله: ﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ النساء:٦٢، وقوله: ﴿ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ ﴾ المائدة:١٠٦، وقوله: ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ القصص:٤٧، وقوله: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ (٣٠) ﴾ الشورى، ألا ترى أنه في جميع هذه الآيات أسند فعل المصيبة إلى المصيبة نفسها.

وقريب من هذا نسبة الإصابة بالسيئة إلى السيئة نفسها، كقوله: ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) ﴾ الروم، وكقوله: ﴿ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ (٤٨) ﴾ الشورى.

وحينما يراد بيان أن جميع المحدثات واقعة بإرادته وتقديره، المصيبة وخلافها، فإنه لا يذكرها بأسلوب إسناد فعلها إليه ﷾، وإنما بأسلوب الخبر عن أنه كتبها على الناس، وأن كل ما يصيب الناس من خير أو شر، وخوف أو رجاء، ورخاء أو شدة، فهو مقدر ومكتوب بإذنه ﷾. كما في قوله عز وجل: ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ (٥١) ﴾ التوبة، وقوله: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) ﴾ الحديد، وقوله: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ التغابن:١١.

---

(١) روح المعاني: ٥/ ٨٠.

فإذ ذكر حدوث المصيبة ووقوعها في المحدثات نسب ذلك إلى مفعولاته ﷻ دون نسبتها إلى نفسه، وإذ ذكر تقديرها وكتابتها أزلا نسبها إلى قضائه وقدره.

٢. إضافة فعل الشر إلى الشر نفسه، وإضافة الخير إليه ﷻ: وهو مطرد في أسلوب القرآن الكريم، كقوله ﷻ: ﴿ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ٨٣ ﴾ الإسراء، فحيث ذكر النعمة أظهر نفسه فاعلها، وحيث ذكر الشر نسب فعله إلى مفعوله ومخلوقه، وهو الشر نفسه.

ومثله قوله: ﴿ لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ ٤٩ ﴾ فصلت، وقوله: ﴿ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ ٥١ ﴾ فصلت.

٣. إسناد الإصابة بالسيئة إلى السيئة نفسها، وإسناد مقابلها إلى الله ﷻ، كقوله: ﴿ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ٣٦ ﴾ الروم، وقوله: ﴿ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ ٤٨ ﴾ الشورى، فلما ذكر الإذاقة بالرحمة نسبها إلى نفسه: ﴿ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ﴾، ولما ذكر الإصابة بالسيئة جعل السيئة نفسها الفاعل: ﴿ تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ ﴾، تعليما للأدب في الخطاب.

ثم انظر إلى نكتة اختلاف التعبير في الآيتين في استعمال الأدوات، فإنه أتى مع إذاقة الرحمة بـ (إذا) الشرطية الدالة على المتحقق والمتيقن الوقوع، وعلى الراجح في الوجود، والكثير الوقوع، ومع الإصابة بالسيئة بـ (إن) الشرطية، الدالة على المشكوك في الوجود، وعلى النادر في الوقوع،(١) للإيذان بذلك على أن إيصال النعمة محقق الوجود، وكثير الوقوع، فهو مراد بالذات من الجواد ﷻ، وأن الإصابة بالضر نادر الوقوع، وأنه بمعزل عن الانتظام في سلك الإرادة الإلهية بالذات، وينبه إلى أن الرحمة والخير هو المقصد الأولي، وأن علة الضر والسيئة هو الجزاء على أعمالهم(٢).

وأما قوله ﷻ: ﴿ وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴾ النساء٨٧-٧٩.

---

(١) ينظر: البرهان: ٤/ ٢٠٠ والإتقان/ ٢/ ١٥٠.

(٢) روح المعاني: ١٣/ ٥٣.

فقد عمم أولاً، فنسب ما يصيب الإنسان من خصب أو جدب، ونصر أو هزيمة، ونعمة أو ضر (حسنة أو سيئة) إلى الله ﷾، ثم فرق بينهما في الآية الثانية، فخص الحسنة بنسبتها إلى الله، ونسب السيئة إلى نفس الإنسان، وذلك أنه في الآية الأولى أخبر عن التقدير والخلق فقال: ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾. وأما الآية الثانية فإنها تخبر عن سبب ما يصيب الإنسان مما قدر له، ففرّق بين الحسنة التي هي النعمة، فهذه من عند الله؛ لأنه أحسن بها من كل وجه، وبين السيئة التي هي البلية والمصيبة، فهذه من عند الإنسان نفسه، أو تكون عامة، فالسبب في الإصابة بالحسنة والخير والنفع هو من فضل الله ورحمته ومنّه، والسبب في الإصابة بخلاف ذلك هو من عمل الإنسان ومن قِبله، بسبب اقترافه المعاصي، عقوبة له وجزاء، والله قدرها عليه عدلا، وهو الموجد لها. يؤده القراءة التفسيرية لابن عباس: أنّه قرأ: ﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ وَأَنَا كَتَبْتُهَا عَلَيْكَ.(١)

وهذه الآية هي على حد قوله ﷾: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ وقوله: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾. على حد قوله ﷺ: «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ»(٢).

٤. ومثله كذلك مع فعل الضر(٣)، فإن القرآن ينسبه إلى الضر نفسه، بينما ينسب مقابله من رحمة أو نعمة أو خير إليه ﷾، ويظهر نفسه فاعله.

وأمثلته كثيرة، ومطردة بهذا الأسلوب، كقوله ﷾: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ يونس. ففي مس الضر للإنسان جعل الفاعل هو الضر نفسه، وفي كشف الضر عنه أظهر ﷾ نفسه فاعل كشفه.

وفيه لطيفة نقلها الفخر الرازي بقوله:

---

(١) ينظر: جامع البيان: ٨/ ٥٥٨، تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٦٣، شرح الطحاوية: ٣٥٣ وروح المعاني: ٣/ ٨٧.

(٢) صحيح البخاري: ٧/ ١١٤ برقم: (٥٦٤١ و٥٦٤٢) عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرض.

(٣) وَالضُّرُّ: مقابل النفع، لَفْظٌ عَامٌّ لِجَمِيعِ الْأَمْرَاضِ. وَالرَّزَايَا فِي النَّفْسِ وَالْمَالِ وَالْأَحِبَّةِ، هَذَا قَوْلُ اللُّغَوِيِّينَ. وَقِيلَ: هُوَ مُخْتَصٌّ بِرَزَايَا الْبَدَنِ الْهُزَالِ وَالْمَرَضِ. ونقل الْأَوَّلَ عن الزَّجَّاجِ. ينظر: المحرر الوجيز: ٣/ ١٠٩ والبحر المحيط: ٦/ ٢٠.

«قَوْلُهُ: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ (إِذَا) مَوْضُوعَةٌ لِلْمُسْتَقْبَلِ. ثُمَّ قَالَ: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا ﴾ وَهَذَا لِلْمَاضِي، فَهَذَا النَّظْمُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَعْنَى الْآيَةِ: أَنَّهُ هَكَذَا كَانَ فِيمَا مَضَى، وَهَكَذَا يَكُونُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ. فَدَلَّ مَا فِي الْآيَةِ مِنَ الْفِعْلِ الْمُسْتَقْبَلِ عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الْمَعْنَى الْمُسْتَقْبَلِ، وَمَا فِيهِ مِنَ الْفِعْلِ الْمَاضِي عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الْمَعْنَى الْمَاضِي»(١).

وقوله ﷻ: ﴿ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ٢١ ﴾ يونس، فلما ذكر الرحمة نسبها إلى نفسه، وإذ ذكر الإمساس بالضر جعل الضر نفسه الفاعل، مع أن الضر هو المفعول والمقضي به.

ثم فرق بين فعليهما، فذكر فعل الإذاقة مع الرحمة، والمس مع الضر، مبالغة في إيصال الرحمة، وتقليلا من أثر الإصابة بالضر. فالرحمة متلبس بها ظاهرا وباطنا، والضر يلامسه أدنى ملامسة (٢). لأن المس مستعمل في مطلق الإصابة، وأصله أدنى اتصال بين طرفين. والذوق أصله موضوع لذوق الطعام، ثم استعمل في كل ما وصل إلى الإنسان من حلاوة ولذة أو مرارة وألم(٣).

وأن الإذاقة وإن كانت تشعر أيضا بأدنى إيصال، إذ الذائق للشيء يلامسه بطرف اللسان، فهي أيضا موضوعة للقليل، ويفيد أقل ما يحصل به الطعم(٤)، غير أن الإِذَاقَةُ أقوى من المس في الإِيصال إِلَى الإِحساس، فأُطْلِق على الإيصال أو الإصابة إذاقة لما فيها من شدة التأثير؛ لتشبيهه بإحساس الذَّوْق في التَّمَكُّن مِن أقوى أعضاء الجسم حاسّية، وَهُوَ اللِّسَان(٥). كما أن الإذاقة أصلها ذوق الطعام، فهو موضوع لما هو مرغوب، إذ الإنسان لا يتذوق غير الطيب المرغوب، ثم استعمل بما هو أعم(٦)، وأما استعمالها في القرآن الكريم للإصابة بالعذاب والضراء فهو من باب التوبيخ والإهانة، مع ما لها من دلالة الإيصال القوي المناسب، على مثال

---

(١) مفاتيح الغيب: ١٧/ ٢٢١.

(٢) ينظر: النكت في إعجاز القرآن: الرماني: ٨٣ ومفاتيح الغيب: ١٧/ ٢٣١،

(٣) ينظر: جامع البيان: ١١/ ٤٢٠.

(٤) ينظر: المفردات: ٣٣٢، مفاتيح الغيب: ١٧/ ٣٢٢ والتحرير والتنوير: ١٢/ ١٤.

(٥) ينظر: روح المعاني: ٧/ ٤٧٧ والتحرير والتنوير: ١١/ ٢٣٤.

(٦) ينظر: الكليات: ٤٦٢، روح المعاني: ٦/ ٢١٦، ٧/ ٤٧٧ والتحرير والتنوير: ١٢/ ١٢ .

البشرى بالعذاب الأليم(١)، وأن إذاقة الرحمة من الله وإن كانت تشعر بالقلة فهي عظيمة(٢). وقابل بين اللفظين.

هنا وكأن المراد أن هذا الإنسان إذا رحمه الله بأقل رحمة منه، وفي بادي الاتصال بها، نسي ما كان يدعو فيه.

وبهذا بكون التعبير بالإذاقة أفاد تمكن إدراك أثرها، والشعور بالنفع والخير فيها ظاهرا وباطنا، وسرعة انقلاب التذوق لها من التضرع حال الضر إلى المعصية حال الخير.

وكقوله: ﴿ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ⑨ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ⑩ ﴾ هود.

ففي الآية الثانية لما ذكر النعمة أظهر نفسه فاعلها والمنعم بها فقال: ﴿ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ ﴾، بينما في الضر لم ينسبه إلى نفسه وإنما قال: ﴿ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ ﴾ فأسنده إلى نفس الضر، ولم يقل: (بعد ضر أمسسناه)؛ إشعار بأن إذاقة النعمة مقصودة بالذات دون مس الضر فهو مقصود بالعرض. وإنما لم يؤت ببيان تحول النعمة إلى الشدة وبيان العكس على طرز واحد، بل خولف التعبير فيهما، حيث بدئ في الأول بإعطاء النعمة وإيصال الرحمة، ولم يبدأ في الثاني بإيصال الضر على نمطه؛ تنبيها على سبق الرحمة على الغضب، واعتناء بشأنها(٣).

ومن جانب آخر؛ فلما كانت الرحمة في الآية الأولى حصلت قبل حصول الضر صرح بفعل الرحمة وبفاعلها فقال: ﴿ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ﴾، ولما ذكر وقوع خلافها بعدها لم يقل: ولئن أذقناه ضرا بعد الرحمة، وإنما قال: ﴿ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ ﴾، تلطفا في الخطاب، إذ لما وصف نفسه بفاعل الرحمة لهذا الإنسان لم يحسن معه وفي سياقه أن يصف نفسه بخلاف ذلك مع ذلك الإنسان، فقال نزعنا منه ما كنا أعطيناه من قبل، ولم يقل: أذقناه خلافها، وهذا من قبيل تعليم الأدب في الخطاب. بينما إذ كان خلاف

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ١٤/ ٣٠٧. وقارن بقول الزمخشري في أن الإذاقة جرت مجرى الحقيقة لشيوعها في البلايا والشدائد. الكشاف: ٢/ ٦٣٩.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب:٢٥/ ١٠٧، و٢٧/ ٦٠٩، وقال: «وَنِعَمُ اللهِّ فِي الدُّنْيَا وَإِنْ كَانَتْ عَظِيمَةً إِلَّا أَنَّهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى السَّعَادَاتِ الْمُعَدَّةِ فِي الْآخِرَةِ كَالْقَطْرَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْبَحْرِ فَلِذَلِكَ سَمَّاهَا ذَوْقًا». والتحرير والتنوير: ١٢/ ١٢ وقال: « ولأن مادة الإذاقة تشعر بإدراك أمر محبوب، لأن المرء لا يذوق إلا ما يشتهيه».

(٣) ينظر: روح المعاني: ٦/ ٢١٦.

الرحمة (الضر) في الآية الثانية قد حصل قبل حصول الرحمة صرح بمسه بالضر، ثم تعقبه بإذاقته الرحمة ونزع الضر عنه، لعدم وجود ما يحترس منه كما في الأولى، وإشعارا بإرادته الرحمة بالعباد دون الضر بهم.

ويقول ابن اطفيش في نكتة هذا التعبير(١): «للتنبيه على سبق رحمة الله غضبه، ولأن المقصود بالذات الرحمة، والبلاءُ للخروج عن الطريق بسوءِ التدبير فهو بالعرض، ولذلك أيضاً لم يقل: (بعد مس ضراءَ) بتقديم المس، وأيضاً لم يقل: (أَمسسنا) كما قال: ﴿ أَذَقۡنَا ﴾؛ ليدل على أَن المقضي بالذات الخير، وأَما الشر فمقضي بالعرض، وللتنبيه على مراعاة الأَدب مع الله كما ورد: (بيدك الخير) مع أَن الشر بيده أَيضا، وأَما إِسناد النزع إِليه فليس إِسناد شر صراحة بل تلطفا».

ويقول أبو السعود(٢): «وفي التعبير عن ملابسة الرحمةِ والنعماءِ بالذوق المُؤْذِنِ بلذتها وكونِها مما يُرْغب فيه، وعن ملابسة الضراءِ بالمسِّ المُشْعِرِ بكونها في أدنى ما ينطلق عليه اسمُ الملاقاة من مراتبها. وإسنادُ الأول إلى الله عزَّ وجلَّ دون الثاني؛ ما لا يَخفَى من الجزالة والدِلالةِ على أن مرادَه ﷾ إنما هو إيصالُ الخيرِ المرغوبِ فيه على أحسنِ ما يكون، وأنه إنما يريد بعباده اليُسرَ دون العسرِ، وإنما ينالهم ذلك بسوء اختيارِهم نيلاً يسيراً، كأنما يلاصقُ البشرَةَ من غير تأثيرٍ، وأما نزعُ الرحمةِ فإنما صدَر عنه بقضية الحِكمةِ الداعيةِ إلى ذلك، وهي كفرانُهم بها كما سبق، وتنكيرُ الرحمة باعتبار لحقوق النزْعِ بها».

وبمثل أسلوب هذه الآية جاء قوله: ﴿ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ ۝٥٠ ﴾ فصلت.

ومن ذلك قوله: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ۝٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ۝٥٤ ﴾ النحل، وقوله: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ۝٦٧ ﴾ الإسراء، فنسب فاعل المس بالضر إلى الضر نفسه، مع أنه ﷾ هو الفاعل الحقيقي، ولذلك كان توجه الإنسان بعد مسه بالضر بالدعاء والإنابة إلى الله وحده لرفع ما نزل به، ولما ذكر فعل نجاتهم أظهر نفسه الفاعل فقال: ﴿ نَجَّىٰكُمۡ ﴾. وبمثل ذلك قوله ﷾: ﴿ وَإِذَا

---

(١) تفسير اطفيش: ٤/ ١٧٤.

(٢) إرشاد العقل السليم: ٤/ ١٩٠ وروح المعاني: ٦/ ٢١٦.

مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ (٣٣) ﴾ الروم، ومثله قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةً مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ (٨) ﴾ الزمر. وقوله: ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۢ ﴾ الزمر:٤٩.

وهذا ما جرى عليه التعبير في القرآن الكريم على لسان عباده المؤمنين، حيث جرى على وفق مراعاة حسن الأدب مع الله سبحانه وتعالى، ألا ترى ما جاء على لسان أيوب عليه السلام حيث قال: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ (٨٣) ﴾ الأنبياء.

والمسّ: الإصابة الخفيفة، والتعبير به حكاية لما سلكه أيوب في دعائه من الأدب مع الله، إذ جعل ما حلّ به من الضر كالمس الخفيف مع شدته[١]. ثم إنه لم ينسب مسه بالضر إلى الله سبحانه وتعالى، وإنما نسبه إلى الضر نفسه فجعله فاعل المس. والضر -بالفتح-: الضرر في كل شيء، وبالضم: الضرر في النفس من مرض وهزال، ففرق بين البناءين لافتراق المعنيين[٢].

كما أن سيدنا أيوب تلطف في الطلب، وهذا من أدب الخطاب مع الله سبحانه وتعالى فقال: ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ الأنبياء:٨٣، فلم يذكر حاجته ويقل: (إني مسني الضر فارفعه عني)، وإنما تلطف فذكر الله بعظيم الرحمة أدبا مع الله، يقول الزمخشري[٣]: «ألطف في السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة، وذكر ربه بغاية الرحمة ولم يصرح بالمطلوب». وقال البيضاوي: «وصف ربه بغاية الرحمة بعدما ذكر نفسه بما يوجبها، واكتفى بذلك عن عرض المطلوب لطفاً في السؤال»[٤].

وأما ما جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (١٧) ﴾ الأنعام.

فإنه سبحانه وتعالى ذكر إمساس الضر وإمساس الخير، وكان الفاعل فيهما هو الله سبحانه وتعالى؛ لأن سياقها مختلف عن سياق الآيات السابقة؛ فلم يقل هنا: (أمسستك)، وإنما جعله من مفعولاته الممكنة

---

(١) التحرير والتنوير: ١٧/ ٩٢.

(٢) الكشاف: ٣/ ١٩١ وأنوار التنزيل: البيضاوي: ٤/ ١٠٤.

(٣) الكشاف: ٣/ ١٩١.

(٤) أنوار التنزيل: ٤/ ١٠٤.

الوجود، ثم إن الآية تخبر عن إمكان الإمساس بالضر مستقبلا، فهي تخبر عن أمر لم يقع بعد، والآيات السابقة تتكلم عن الإمساس الواقع فعلا، وبينهما فارق، فإن قول أحد لغيره: إن فعلت بك كذا وكذا، فهو يخبر عن قدرته على الفعل، ولم يخبر عن الوقوع، فلما كان كذلك، حسنت النسبة إليه ﷾، على خلاف الإخبار عن الحالة بعد الإصابة.

وميز الأول عن الثاني ليتناسق سياقها مع ما اطرد أسلوبه في الآيات الأخرى من مراعاة الأدب في الخطاب: فقدّم ذكر إمساس الضر على ذكر إمساس الخير، وذلك تنبيه على أن جميع المضار لا بدّ وأن يحصل عَقِيبَهَا الخير وَالسلاَمَة.

ثم إنه قال في إمساس الضرّ ﴿ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾، وذكر في إمساس الخير ﴿ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ فذكر في الخير كونه قادراً على جميع الأشياء، وذلك يدل على أنّ إرادة الله ﷾ لإيصال الخيرات غالبة على إرادته لإيصال المضارِ، وأنّ إرادة الله ﷾ جانب الرحمة غالب(١). وكذلك فإن الذي يقابل الخير هو الشر وناب عنه هنا الضر، وعدل عن الشر، لأنّ الشر أعمّ من الضر، فَأْتي بلفظ الضر الذي هو أخصّ، وبلفظ الخير الذي هو عامّ مقابل لعام؛ تغليبا لجهة الرحمة(٢).

ومثله قوله ﷾: ﴿ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (١٠٧) ﴾ يونس.

وتأمل كيف خالف في التعبير بينهما، فقال في الضر ﴿ يَمۡسَسۡكَ ﴾، ثم قال في الخير: ﴿ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ ﴾، فلم ينسب الضر إلى إرادته الله، بل تنسب إلى فعله، أي: مفعوله.

فالمس من فعل الله، والضر من مفعولاته، فالله لا يريد الضر لذاته، بل يريده لغيره، لما يترتب عليه من الخير، ولما وراء ذلك من الحكمة.

أما الخير، فهو مراد الله لذاته، ومفعول له.

وعلى هذا النحو جاء قوله ﷾: ﴿ قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا (١٧) ﴾ الأحزاب.

ثالثا: تقديم فعله تعالى مع الخير، وتقديم فعل العباد مع ضده:

يقول ابن عطية: «وهذا المنزع يطرد في فصاحة القرآن كثيرا، ألا ترى إلى تقديم فعل

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب: ١٢/ ٤٩٤-٤٩٥.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز: ٢/ ٢٧٤ والبحر المحيط: ٤/ ٤٥٥-٤٥٦.

البشر في قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ الصف:٥، وتقديم فعل الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ ١١٨﴾ التوبة»(١). تلويحا بأن الله سبحانه وتعالى يريد لعباده الخير والهدى والرشد، ولا يريد لهم الضلال والزيغ، وأن رحمته تسبق غضبه، فقد أراد لهم الهداية واتباع ما ينفعهم، واستدعاهم إلى ذلك، وأن إزاغة الله سبحانه وتعالى لهم قد استدعاها زيغهم هم أولا، على حد قوله: ﴿فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ﴾ النساء:٨٨، ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ٣٦﴾ وقوله: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ١٥٢﴾ البقرة، وقوله: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ البقرة:٤٠.

وأمثلة هذا الأسلوب الجميل كثيرة، منها قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ البقرة:١٤، ١٥، فقدم فعل استهزائهم، ثم أعقبه بفعل الاستهزاء بهم، مقابلة لفعلهم بمثله وجزاء. ومنه قوله: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ﴾ التوبة:٦٧، ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ ١٩﴾ الحشر، فقدم فعل الناس أولاً، وجعل نسيانه إياهم نتيجة لنسيانهم إياه.

ومنه قوله: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ التوبة:١٢٧، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ١﴾ محمد، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٨﴾ محمد، فقدم فعلهم للكفر والصد عن السبيل على فعله في إضلالهم، وقوله أيضا: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾ الجاثية:٢٣. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠﴾ الأنفال، وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦﴾ الطارق. وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ النساء:١٤٢، إلى غير ذلك، وهذا من باب مقابلة الإنسان بمثل فعله(٢).

وعلى هذه القاعدة جاء قول قوله سبحانه وتعالى على لسان ذي القرنين: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ٨٧ وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا ٨٨﴾ الكهف.

---

(١) المحرر الوجيز: ٤/ ٣٣٤.

(٢) ينظر: تفسير الكريم المنان: السعدي: ٧/ ٤٩١ وشرح لمعة الاعتقاد: العثيمين: ١٠.

فلما ذكر العذاب قدم نفسه، ثم أتى بفعل الله بعده، ولما ذكر الثواب والأجر قدم فعل الله فقال: ﴿ فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ ﴾، أي: الجنة، ثم أتى بما هو من عنده بعده وهو: ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا ٨٨ ﴾. أدبا في الخطاب معه ﷻ. ولما ذكر ما أعد الله له من الحسنى جزاء، لم يناسب أن يذكر جزاءه بالفعل، بل اقتصر على القول، أدبا مع الله ﷻ، وإن كان يعلم أنه يحسن إليه فعلا وقولا(١).

وقول سيدنا عيسى عليه السلام: ﴿ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴾ المائدة:١١٦، فإذ كان السياق عن ذكر العلم، وهو ليس مما يتعلق بضر أو عذاب أو ضلال قدم علم الله بما في نفسه على عدم علمه هو بما في نفس الله ﷻ، محافظة على أدب الخطاب(٢).

وهكذا تلاحظ أن إظهار الفاعل وإخفاءه، ونسبة الفعل إليه ﷻ أو إلى غيره، كله يجري في نطاق تعليم الأدب في الخطاب معه ﷻ، فهو نسق مطرد في القرآن الكريم، وطريقة منظورة في أسلوبه.

---

(١) ينظر: البحر المحيط: ٧/ ٤٧٩. وذكر لطيفة أخرى في التقديم والتأخير يحسن ذكرها حيث قال: « وما أحسن مجيء هذه الجمل لما ذكر ما يستحقه من ظلم بدأ بما هو أقرب لهم ومحسوس عندهم، وهو قوله (فسوف نعذبه)، ثم أخبر بما يلحقه آخراً يوم القيامة، وهو تعذيب الله إياه العذاب النكر، ولأن الترتيب الواقع هو كذا، ولما ذكر ما يستحقه (من آمن وعمل صالحاً) ذكر جزاء الله له في الآخرة وهو (الحسنى)، أي: الجنة، لأن طمع المؤمن في الآخرة ورجاءه هو الذي حمله على أن آمن لأجل جزائه في الآخرة، وهو عظيم بالنسبة للإحسان في الدنيا، ثم أتبع ذلك بإحسانه له في الدنيا بقوله (وسنقول له من أمرنا يسراً) أي لا نقول له ما يتكلفه مما هو شاق عليه، أي: قولاً ذا يسر وسهولة، كما قال: قولاً ميسوراً».

(٢) تفسير القشيري: ٢/ ١٩٠.

الخاتمة

لقد تبين لنا مما سلف جملة من الأمور التي نوجزها في الآتي:

أولا: لدى استقراء آيات القرآن المتعلقة بموضوعات الخير والشر، تبين لنا أن القرآن اتبع طرقا متنوعة في التعبير عن إسناد فعل الشر، فمرة يسنده إلى مفعولاته، ومرة يسنده إلى السبب المجازي القريب، أو يسنده إلى القائم به والواقع فيه، ومرة يحذف الفاعل ويبني الفعل للمجهول، وقد يرد مقابل الخير مسندا إلى الله ﷾ ولكن مع حذف المفعول من ضر وتضييق رزق ونحو ذلك، وقد يأتي مرتبا على فعل الإنسان، من باب الجزاء، وهذا يؤكد لنا بأن ذلك يجري من باب الأدب مع الله ﷾، وللتنبيه على أن الله ﷾ يريد بعباده الرحمة، ولا يريد بهم الشر والضر، وأن رحمته تسبق غضبه.

ثانيا: أن ما يفعله من العدل بعباده، وعقوبة من يستحق العقوبة منهم هو خير محض إذ هو محض العدل والحكمة، وإنما يكون شرا بالنسبة إليهم. فالشر وقع في تعلقه بهم وقيامه بهم، لا في فعله القائم به ﷾، وكما قال: ﴿ أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ٣٥ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ٣٦ ﴾ القلم، وقوله: ﴿ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٢١ ﴾ الجاثية.

ثالثا: وأن ما هو شر، أو متضمن للشر، فإنه لا يكون إلا مفعولا منفصلا، ولا يكون وصفا له، ولا فعلا من أفعاله. وأن كونه شرا هو أمر نسبي إضافي، فهو خير من جهة تعلق فعل الرب وتكوينه به، وشر من جهة نسبته إلى من هو شر في حقه. فله وجهان، هو من أحدهما خير، وهو الوجه الذي نسب منه إلى الخالق ﷾ خلقا وتكوينا ومشيئة، لما فيه من الحكمة البالغة التي استأثر بعلمها، وأطلع من شاء من خلقه على ما شاء منها.

رابعا: إن إضافة أفعال الخير إلى الله ﷾ دون أفعال الشر فيه جملة من الحكم البالغة والفوائد، بعضها يقتضيها السياق والمقام، وبعضها يتعلق بالإرشاد والتعليم، منها:

١. في ذلك إشارة إلى عظيم رحمة الله ولطفه بالعباد، فإن الله ﷾ رحيم بعباده، لطيف بهم، يريد لعباده الخير والنفع، ولا يريد لهم الشر والمكروه. ورحمته سابقة لغضبه وعقابه، ولو ذكر خلقه أفعال الشر لتوهم أن يكون الشر غالبا في فعله.
٢. إن الشر إذ يقع بهم فذلك لأنهم قصدوا أسبابه، وتعرضوا لمقتضياته، فكان لهم دخل فيه، فكأنهم هم ساقوه لأنفسهم.
٣. فيه تذكير بنعمه ﷾ استدعاء لشكرها. لأن الخير هو المرغوب بفعله.
٤. تعليم لأدب الخطاب مع الله ﷾ بإضافة أشرف أفعاله إليه.
٥. إن الخير يضاف إليه ﷾ إرادة محبة ورضا، ولا يضاف الشر إلى صفاته وأفعاله؛ لأنها كلها كمال لا نقص فيها.

أهم المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. الإتقان في علوم القرآن: السيوطي، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، ١٩٨٧م.

٢. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: أبو السعود العمادي، بيروت، دار إحياء التراث.

٣. أسرار التكرار في القرآن: محمود بن حمزة الكرماني، القاهرة، المحمدية، ١٩٧٤.

٤. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين الشنقيطي، بيروت، عالم الكتب.

٥. الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال، ابن المنير. (بهامش الكشاف).

٦. أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر (ت ٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، بيروت، دار إحياء التراث العربي –بيروت ط١، ١٤١٨ هـ

٧. بحر العلوم: السمرقندي: أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الفقيه الحنفي (ت٣٧٣هـ)، تحقيق: د. محمود مطرجي، بيروت، دار الفكر.

٨. البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي، بيروت، مصورة على مطبعة السعادة، ١٣٢٩هـ.

٩. بدائع الفوائد: ابن القيم، القاهرة، المنيرية. وبيروت، دار الفكر.

١٠. البرهان في علوم القرآن: الزركشي بدر الدين، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٧.

١١. تأويلات أهل السنة: أبو منصور الماتريدي محمد بن محمد بن محمود، (ت ٣٣٣هـ)، تحقيق: د. مجدي باسلوم، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٦-٢٠٠٥.

١٢. التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.

١٣. تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: المباركفوري أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم (ت ١٣٥٣هـ)، بيروت، دار الكتب العلمية.

١٤. التسهيل لعلوم التنزيل: ابن جزي الكلبي، القاهرة، السعادة،١٩٦٩م.

١٥. التعبير القرآني: د. فاضل السامرائي.

١٦. تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، بيروت، مكتبة الهلال،١٩٨٦م.

١٧. التفسير القيم: ابن القيم، جمع محمد أويس الندوي، السنة المحمدية، ١٩٧٣.

١٨. التفسير الكبير: الفخر الرازي: بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط٣.

١٩. تفسير اللباب: ابن عادل الحنبلي الدمشقي، بيروت، دار الكتب العلمية.

٢٠. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي

(ت١٣٧٦هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٢١. جامع البيان في تأويل آي القرآن: ابن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، القاهرة، دار المعارف.

٢٢. الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (ت٦٧١هـ)، تحقيق: هشام سمير البخاري، الرياض، دار عالم الكتب، ط١، ١٤٢٣ هـ- ٢٠٠٣ م.

٢٣. الحسنة والسيئة: ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، بيروت، دار الكتب العلمية.

٢٤. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: ابن السمين الحلبي أبو العباس أحمد بن يوسف (ت٧٥٦هـ)، تحقيق: د. أحمد محمد الخراط، دمشق، دار القلم.

٢٥. درة التنزيل وغرة التأويل: الإسكافي، بيرت، ١٣٩٣هـ.

٢٦. روح المعاني: أبو الثناء الآلوسي، بيروت، دار إحياء التراث، ١٩٥٣م.

٢٧. زاد المسير في علم التفسير: عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، بيروت، المكتب الإسلامي، ط٣، ١٤٠٤.

٢٨. سنن ابن ماجه: القاهرة، دار الحديث.

٢٩. سنن أبي داود: بيروت، دار الكتب العلمية.

٣٠. سنن الترمذي: بيروت، دار الفكر، ١٤٠٨هـ.

٣١. سنن النسائي: بشرح السيوطي وحاشية السندي، بيروت، دار الكتب العلمية.

٣٢. شرح الطحاوية: ابن أبي العز الحنفي صدر الدين محمد بن علاء الدين الصالحي الدمشقي (ت ٧٩٢هـ)، تحقيق: أحمد شاكر، الرياض، وزارة الشؤون الإسلامية، ط١، ١٤١٨هـ.

٣٣. شفاء العليل: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل: ابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١هـ)، بيروت، دار المعرفة،١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.

٣٤. صحيح البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت٢٥٦هـ)، القاهرة، دار الشعب.

٣٥. صحيح مسلم: القاهرة، ١٩٥٤م.

٣٦. عون المعبود شرح سنن أبي داود: محمد أشرف بن أمير شرف الحق الصديقي العظيم آبادي (ت ١٣٢٩هـ)، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤١٥هـ.

٣٧. فتح الباري شرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني، القاهرة، مصطفى البابي الحلبي، ١٩٥٩.

٣٨. فتح القدير: الشوكاني، القاهرة، مصطفى البابي، ١٩٦٤م.

٣٩. في ظلال القرآن: سيد قطب، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية.

٤٠. الكشاف: الزمخشري، القاهرة، البابي الحلبي ١٩٧٢م.

٤١. الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية: أبو البقاء العكبري، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٢هـ- ١٩٩٨م.

٤٢. لسان العرب: ابن منظور، بيروت، دار صادر، ١٩٥٦م.

٤٣. لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية: السفاريني شمس الدين أبو العون محمد بن أحمد الحنبلي (ت١١٨٨هـ) دمشق، مؤسسة الخافقين ومكتبتها، ط٢، ١٤٠٢ هـ -١٩٨٢م.

٤٤. مجمع البيان: الطبرسي، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

٤٥. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: الحافظ الهيثمي نور الدين علي بن أبي بكر (ت ٨٠٧)، بتحرير الحافظين: العراقي وابن حجر، بيروت، دار الفكر، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

٤٦. مجموع الفتاوى: ابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم، الرياض.

٤٧. محاسن التأويل: محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط ١، ١٤١٥-١٩٩٤م.

٤٨. المحرر الوجيز: ابن عطية، القاهرة، الأهرام. وطبعة وزارة الأوقاف، المغرب، ١٣٩٥هـ.

٤٩. مسند أحمد: أحمد بن حنبل أبو عبد الله (ت٢٤١هـ)، جمعية المكنز الإسلامي، ط١، ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م.

٥٠. معاني القرآن وإعرابه: الزجاج، تحقيق وشرح: د. عبد الجليل عبده شلبي، بيروت، عالم الكتب، ١٩٨٨م.

٥١. معترك الأقران في إعجاز القرآن: جلال الدين السيوطي، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٨م.

٥٢. المفردات في غريب ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني، بيروت، دار المعرفة.

٥٣. ملاك التأويل: ابن الزبير الغرناطي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٦.

٥٤. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: إبراهيم البقاعي، بيروت، دار الكتب العلمية.

٥٥. النكت في إعجاز القرآن: (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) الخطابي، مصر، دار المعارف، ١٩٦٨.

٥٦. النكت والعيون: أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، تحقيق: السيد بن عبد المقصود، بيروت، دار الكتب العلمية.

٥٧. الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأحكامه، وجمل من فنون علومه: مكي بن أبي طالب القيسي أبو محمد الأندلسي القرطبي المالكي (ت ٤٣٧هـ)، تحقيق: مجموعة رسائل جامعية، جامعة الشارقة، ط١، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.